مجلة شهرية

نـــــور المسيـــح

يسوع المسيح الغالب

Φ Ω Σ ΧΡΙΣΤΟΥ

Issue No: 168 عدد

August 2021 شهر آب

جمعية نور المسيح، رقم ٥٨٠٣٢٧٩١٤ ، ص.ب. ٦١٩ قانا الجليل ١٦٩٣٠

Nour Almasih / Light of Christ, Registered Society No. 580327914 - P.O.Box 619 , Cana of Galilee 16930, website:www.lightchrist.org

دير لوكاس العامر للروم الأرثوذكس وكنيسة التجلّي الإلهي أركاديا - اليونان

تجلي ربنا والهنا ومخلصنا يسوع السيح المقدس على طور ثابور

كلمة صاحب الغبطة بطريرك المدينة المقدّسة أورشليم

كيريوس كيريوس تيوفيلوس الثالث

بمناسبة عِيد تجلِّي ربّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، على طور ثابور - 19-8-2020

« لقد أخذ المسيح بطرس ويعقوب ويوحنا إلى جبلٍ عالٍ على انفرادٍ. وتجلّى قدّامهم. فأشرق وجههُ كالشمس. وصارت ثيابهُ بيضاءَ كالنور. وظهر موسى وإيليا يتكلّمان معهُ. وظلّلتهم سحابةٌ منيرةٌ. وإذا صوتٌ من السماء يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررت. فلهُ اسمعوا.» ؛ هذا ما يتفوهُ بهِ **مرنمُ الكنيسة** الذي استعمل الكلمات التي رواها الإنجيليّ متى (مت ١٧: ١-٥).

أيها الإخوة المحبوبون في المسيح

أيها المسيحيون الأتقياء

اليوم مخلِّص نفوسنا الذي أنار الإنسان الفاقد هيئة الجمال، وأبهجه وغيَّر طبيعة آدم التي كانت قد **أظلمت**. فجعلها تتلألأُ وأَلهَّها، قد جمعنا اليوم في جبل **ثابور المقدس** لكي سِرِّيًا في سِرِّ الشكر الإلهي، نعاين **المسيح** معاينةً عقليةً يسطعُ بالأشعة الإلهية. ونسمعُ صوت الآب ينادي بالابن الحبيب الذي أنار الضعف البشري على ثابور. وهو يفيض على نفوسنا بالإنارة.

على هذا **الجبل العالي المقدس**، حيث تَجلَّى **يسوع المسيح** أمام تلاميذه وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ. (متى ١٧: ٢) قد أعطى تصورًا مسبقًا عن نور مجد الله الآب الذي لا يُدنى منه. لهذا فإنَّ **مرنمَ الكنيسة** يقول: «لقد خَلَفَتِ الغمام الناموسيّ سحابةُ التَجلِّي المنيرة. التي حضر فيها موسى وإيليا. مُستَحِقَّيْنِ أن يعاينا المجد الساطع الضياء. فهتفا يقولان لله أنت إلهنا ملك الدهور».

إن الهدف الوحيد والمطلق لِسِرِّ التدبير الإلهي أي إيماننا بابن **الله وكلمته** الذي تأنس **ربنا يسوع المسيح**، وهو لكي نستحق نحن نور مجد الله الذي يفوق العقل. وربما يتساءل أحدٌ ما قائلًا ما هو هذا مجد الله؟ فنجيبُ: قد ذُكِرَ في سفر الخروج أنَّهُ:« كَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ الرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ.» (خروج ٢٤: ١٧). في الجوهر إنَّ منظر مجد الرَّب هو شخص الله الذي لا يستطيع أحد أن يراه، كما هو مكتوب في سفر الخروج وَقَالَ **الرَّب**: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ».

(خروج ٣٣: ٢٠). وفي مكان آخر قال **الرَّب لإيليا التسبي**: «اخْرُجْ وَقِفْ عَلَى الْجَبَلِ أَمَامَ الرَّبِّ». وَإِذَا بِالرَّبِّ عَابِرٌ .... وَبَعْدَ النَّارِ صَوْتٌ مُنْخَفِضٌ خَفِيفٌ. وهناك كان الرَّب» (٣ملوك ١٩: ١١-١٢).

وبحسب شهادة القديس الإنجيلي يوحنا فإن **الرَّب** هو نور العالم. «ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا قَائِلًا: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». (يوحنا ٨: ١٢). إنَّ **نور المسيح** هذا ليس هو إلَّا **مجد الرَّب** كما يشهد الإنجيلي لوقا عندما ذكر الرعاة الساهرين من جهة، « وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ» (لوقا ٢: ٩)، ومن الجهة الأخرى عند رَجْمِ استيفانوس. « وَأَمَّا ''أستيفانوس'' فَشَخَصَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُمْتَلِئٌ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، فَرَأَى مَجْدَ اللهِ، وَيَسُوعَ قَائِمًا عَنْ يَمِينِ اللهِ.فَقَالَ: هَا أَنَا أَنْظُرُ السَّمَاوَاتِ مَفْتُوحَةً، وَابْنَ الإِنْسَانِ قَائِمًا عَنْ يَمِينِ اللهِ.» (أعمال ٧: ٥٥-٥٦).

إن حدث **تجلِّي المسيح** يُشكل مقدمةً لرسم قيامتهِ أي تهيئة التلاميذ الذين هم مزمعون أن يصيروا شهودًا بعيونهم وبآذانهم على آلامه وصلبه وموته ودفنه الثلاثي الأيام، وبالطبع قيامته المجيدة كما يؤكد الإنجيلي متى قائلًا: «مِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُظْهِرُ لِتَلاَمِيذِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ كَثِيرًا مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ.» (متى ١٦: ٢١). وهذا أيضًا ما يشهد ويؤكد عليه **مرنمُ الكنيسة** قائلًا: « لمَّا تجلّيت قبل صلبك يا رب، شَابَهَ الجبل السماء، وانبسطت السحابة كمظلّة، وشُهد لك من لَدُنِ الآب. وكان حاضرًا بطرس مع يعقوب ويوحنا، بما أنّهم يكونون معك في حين تسليمك. حتى إذا شاهدوا عجائبك لا يجزعون من آلامك. إذ أردت أن تعلن ضياء القيامة».

إن العمق اللاهوتي والعلوّ والعرض لعجيبة **تجلِّي المسيح** تتركَّز على نقطتين أساسيتين: الأولى بأنَّ **المسيح** قد تجلَّى وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ، وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ. (متى ١٧:٢)

والثانية هي: «السَحَابَةٌ النَيِّرَةٌ التي ظَلَّلَتْهُمْ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلًا: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ. لَهُ اسْمَعُوا». (متى ١٧: ٥).

ونقول هذا لأنَّ خبرة معاينة ضياء وبهاء نور التجلِّي، وسماع الصوت من السحابة لا يخص فقط وينحصر في التلاميذ الذين كانوا متواجدين على الجبل مع المسيح، بل يخص أيضًا جميع أولئك المؤمنين الذين يحبون الله من كل قلوبهم وأفكارهم الطاهرة. ولنسمع ما يقول بهذا الخصوص أبو الكنيسة **القديس غريغوريوس بالاماس** في تعليمه الذي يستند فيه على **كبار الآباء اللاهوتيين والمتوشحين بالله** إذ يقول: « إنَّ التلاميذ المختارين، كما تسمع الكنيسة ترتل: قد عاينوا في ثابور جمال الله الجوهري والازلي...الإشراق الفائق الضياء نفسه الذي لجمال المثال الأول، الرؤية غير المنظورة نفسها، رؤية الحلية الإلهية، التي تؤلِّه الإنسان وتؤهِّلهُ لعلاقات شخصية مع الله، ولملكوت الله نفسه الأزلي والذي لانهاية له، هذا النور الذي يفوق العقل والذي لا يُدنى منه، النور السماوي، اللامتناهي، اللازَمَنِيّ، الأزليّ، النور الذي ينبُع عدم الفساد والذي يؤلِّهُ معاينيه. فإنهم قد عاينوا نعمة الروح القدس نفسها الذي حلّ فيهم فيما بعد. اذ ليس سوى نعمة واحدة للآب والابن والروح القدس وقد عاينوها بعيونهم الجسدية التي فُتِحت ليتمكنّوا من أن يروا. هم الذين كانوا عميانًا على حسب يوحنا الدمشقي الإلهي، وقد عاينوا ذلك النور غَيْرَ المخلوق الذي سيكون منظورًا بلا انقطاع، حتى في الدهر الآتي للقديسين وحدهم وفقًا للقديسَيْن ديونيسيوس ومكسيموس.»

إنَّ هذا **النور غَيْرَ المخلوق نور تجلِّي مخلصنا يسوع المسيح** الذي ظهر وأنار جبل ثابور، أي هذا المكان والموضع المقدس، لهذا فإنه أيضًا يُدعى نور ثابور، لهذا فإن هذا النور يستحق معاينته **القديسون والصديقون الأبرار** كما هو مكتوب: «طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ.» (متى ٥: ٨). وكما يرنم **داود النبي** قائلًا: «لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبُوعَ الْحَيَاةِ. بِنُورِكَ نَرَى نُورًا.» (مزمور ٣٥: ١٠).

ختامًا أيها الإخوة الأحبة نتضرع إلى **كلمة الله، والله أبو الأنوار** لكي **بشفاعات سيدتنا الفائقة البركات، والدة الإله الدائمة البتولية مريم أم الله** ومع صاحب المزمور نهتف ونرنم قائلين: «يَا رَبُّ، بِنُورِ وَجْهِكَ يَسْلُكُونَ. بِاسْمِكَ يَبْتَهِجُونَ الْيَوْمَ كُلَّهُ، وَبِعَدْلِكَ يَرْتَفِعُونَ.» (مزمور ٨٨: ١٦). آمين

الداعي لكم بحرارة بالرب
البطريرك ثيوفيلوس الثالث
بطريرك المدينة المقدسة أورشليم

مَنْ هُوَ

ولا يزال العالم عبر الأجيال والعصور يتساءل ويقول عن **المسيح**: «**مَنْ هُوَ**». وهذه إجابة **الاديب الكبير جبران خليل جبران**:

«كان عجيبًا في كُلِّ شيء، ارتدى ثوب البشريَّة، لكي نرتدي نحنُ ثوب الألوهيَّة، صار ابن الانسان لكي نصير نحنُ أبناء الله، نزل من السماء وأزعَجَ في طفولته مَلِكًا، وفي صبوّته حيَّر الحكماء ، وفي رجولته تحكَّمَ في سير الطبيعة، سارَ فوق الامواج، وأخرَسَ البحر المتلاطم العجاج، أبرأ الجماهير بغير دواء، ولم يتقاضَ عن خدمته أجرًا، لم يكتب كتابًا على أنَّ كُلّ مكتبات العالم لا تقدر أن تسع المؤلفات التي كُتِبَت عنه، لم ينشد أغنية واحدة على أنّه زَوَّدَ المرتلين والمنشدين بأغانٍ وألحان وتسابيح تربو على ما وضعه كُتَّاب الاناشيد جميعًا، لم يؤسِّس كليَّة جامعة، على أنَّ مدارس العالم لا تقدر أن تفخر بكثرة من الطلاب تقرب من عدد طلابه ومريديه، لم يُمارس الطّب ومع ذلك فقد جَبَّر من القلوب الكسيرة أكثر ممَّا أبرأ الأطباء من الاجسام العليلة، لم يُعَبِّيء جيشًا ولم يُدَرِّب جنديًّا، ولم يُطلق مدفعًا، على أنَّ أحدًا من القواد لم يستطع أن يجمع حوله عددًا من المحاربين، قدر ما جمع هو حوله من المتطوِّعين الذين أرغموا العُصاةَ على القاءِ السِّلاحِ أو الاستسلام بدون طلقة واحدة !!

قال فيه الكتاب، وكتب فيه المؤلّفون: أنَّه الكوكب في علم الفلك، والصَّخر في علم طبقات الارض، والاسد والحمل في علم الحيوان، وسوسنة الاودية ونرجس شارون (نشيد الانشاد ٢:١) في علم النبات، ظَهَرَ العظماء على مسرح التاريخ، ثُمَّ اختفوا، أمَّا هو فباقٍ ملء الاسماع والانظار، **لم يقدر هيرودس أن يقتله، وعجز الشيطان عن أن يغريه، ولم يستطع الموت أن يهلكه ولا القبر أن يسعه**، خلَعَ رداءه الارجواني، واستعاضَ عنه ثوب الفلاح، كان غنيًّا ولكنه من أجلنا قد افتقر، وأي فقر؟! اسأل **مريم العذراء** وحكماء المجوس، اضطجع في مذود غيره، وطوَّف البحيرة في سفينةٍ ليست مُلْكَهُ، وامتطى اتانًا يملكه آخر، ودُفِنَ في قبرِ رَجُلٍ غريب، الكُلّ فَشِلُوا إلَّا هو، هو الكامل الاوحد، **هو المسيح الله الكلمة، الأقنوم الثاني في الثالوث القدوس المُحيي** .

تؤمن الكنيسة، منذ نشأتها الأولى، بأنّ الرَّبّ يسوع **إلهٌ تامّ وإنسانٌ تامّ**. وثمّة في الأناجيل الأربعة وفي باقي أسفار العهد الجديد براهين وحجج عديدة تدعم هذا الإيمان. غير أن ظهور بعض **الهرطقات والبِدَع** التي أنكرت هذه الحقيقة الراسخة في وجدان الكنيسة والمؤمنين، استدعت عقد المجامع المسكونيّة التي رفضت تعاليم المُهرطقين، وصاغت الإيمان في دساتير وبيانات ما زالت إلى اليوم المرجع الثابت للإيمان المستقيم. ويجدر التنويه إلى أنَّ المجامع لم تبتدع عقائد جديدة، بل أقرّت العقائد القائمة، وأجمعت عليها في وجه **العقائد المنحرفة** التي ظهرت في أوقات متأخّرة.

أمّا أهمّ العقائد التي طالتها الهرطقات فهي تلك المتعلّقة **بالثالوث الأقدس، وَبِتَأَنُّسِ ابنِ الله، وبشخص يسوع المسيح الإله والإنسان**. ويحتلّ المجمع المسكونيّ الرابع الذي انعقد **عام ٤٥١** في مدينة خلقيدونية بالقرب من القسطنطينيّة، والذي نقيم اليوم تذكار الآباء القدّيسين الذين شاركوا فيه، مكانة بارزة. ففيه تمّ إقرار عقيدة الطبيعتين الإلهيّة والإنسانيّة في يسوع المسيح. فالمسيح الإله الأزليّ الكائن قبل الوجود قد وُلد من مريم العذراء وصار إنسانًا من دون أن يتخلّى عن الألوهة. لذلك يُعرب آباء المجمع عن إيمانهم بيسوع الكامل من حيث ألوهته، والكامل من حيث إنسانيّته، **الإله الحقّ والإنسان الحقّ**.

قبل مجمع خلقيدونية، يؤكّد **المجمع المسكونيّ الثالث** المنعقد في مدينة أفسس (**٤٣١**) على كون المسيح إلهًا وإنسانًا في الوقت عينه، فيقول: «إنّنا نعترف بأنّ الكلمة صار واحدًا مع الجسد، إذ اتّحد به اتّحادًا شخصيًّا. فنعبد الشخص الواحد، الابن، والرَّبّ، يسوع المسيح. إنّنا لا نفرّق بين الإله والإنسان، ولا نفصل بينهما (...) إنّما نعترف بمسيح واحد هو الكلمة المولود من الآب وهو الذي اتّخذ جسدًا». ثمّ أصدرت الكنيسة الأنطاكيّة، التي كانت غائبة عن مجمع أفسس، بيانًا سُمِّيَ بـ"قانون الوحدة" (**٤٣٣**)، أيّدت فيه ما جاء في قرارات المجمع، وأعلنت ما يأتي: «إنّنا نعترف بأنّ ربّنا يسوع المسيح، الابن الوحيد لله، هو إله حقّ، وإنسان حقّ... وأنّه وُلد من الآب قبل كلّ الدهور بحسب ألوهته، وأنّه هو نفسه، في الأزمنة الأخيرة، وُلد لأجلنا ولأجل خلاصنا، من مريم العذراء بحسب بشريّته؛ وأنّه مساوٍ للآب في الجوهر بحسب الألوهة، وكذلك مساوٍ لنا بحسب البشريّة».

عام ٤٤٨ ظهرت بدعة **أوطيخا** الذي كان رئيس دير في القسطنطينيّة، إذ قال: **إنّ طبيعَتَي المسيح، الإلهيّة والإنسانيّة، اتّحدتا وصارتا بعد التجسّد طبيعة واحدة**. تَمَّ رفض **تعليم أوطيخا بجملته**، فبعث **لاون الكبير، بابا رومية، رسالة إلى فلافيانوس بطريرك القسطنطينيّة، عام ٤٤٩**، جاء فيها: «إنَّ كلتا الطبيعتين تعمل، بالاتّحاد مع الأخرى، ما هو خاصّ بها. فالكلمة يعمل ما هو خاصّ بالكلمة، والجسد يحقّق ما هو خاصّ بالجسد. أحدهما يشرق بالعجائب، والآخر يخضع للإساءات التي توجَّه إليه... واحدٌ هو، وهو نفسه حقًّا **ابن الله وحقًّا ابن الإنسان**. فهو **إله لأنّه في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة إلهًا** (يوحنّا ١:١)، وهو **إنسان لأنّ الكلمة صار جسدًا وسكن في ما بيننا** (يوحنّا ١٤:١). هو إله **لأنّه به كوّن كلّ شيء، وبدونه لم يكن شيء واحد ممّا كوّن** (يوحنّا ٣:١). وهو **إنسان لإنّه مولود من امرأة مولود تحت الناموس** (غلاطية ٤:٤)».

تبنّى آباء مجمع خلقيدونية رسالة لاون الكبير هاتفين: «هذا هو إيمان الرسل، هكذا كلّنا نؤمن، وهكذا يؤمن المستقيمو الرأي...». وأقرّ الآباء أنفسهم التحديد العقائديّ الآتي: «إنّنا نتمسّك باتّباع الآباء القدّيسين في الاعتراف بمَن هو واحد، وهو نفسه الابن وربّنا يسوع المسيح. وبصوت واحد متّفق نعلن أنّه هو نفسه تامّ في الألوهة وتامّ في البشريّة، إله حقّ وإنسان حقّ، وهو نفسه مكوّن من نفس عاقلة وجسد. إنّه مساوٍ للآب في الألوهة ومساوٍ لنا في البشريّة، شبيه بنا في كلّ شيء ما خلا الخطيئة. قبل كلّ الدهور وُلد من الآب بحسب الألوهة، وفي الأيّام الأخيرة هو نفسه، لأجلنا ولأجل خلاصنا، وُلد من

مريم العذراء والدة الإله، بحسب البشريّة. واحدٌ هو، وهو نفسه المسيح، الابن الوحيد، الرَّبّ الذي يجب الاعتراف به في طبيعتين متّحدتين من دون اختلاط ولا تحوّل ولا انقسام ولا انفصال».

ثمّ يعيد التحديد الخلقيدونيّ العقائديّ التشديد على وحدة الشخص في المسيح، فيتابع قائلًا: «إنّ اتّحاد الطبيعتين لم يُزل ولم يُلغِ بأيّ شكل من الأشكال ما فيهما من تبايُن، بل على العكس من ذلك، قد حُفظت سالمةً جميع خصائص الطبيعتين اللتين اتّحدتا في شخص واحد وأقنوم واحد. وهو لم ينقسم ولم ينفصل إلى شخصين، بل واحدٌ هو، وهو نفسه الابن الوحيد، الإله الكلمة، الربّ يسوع المسيح». لم يأتِ مجمع خلقيدونيّة بعقيدة جديدة، بل أعاد التأكيد على الإيمان المستقيم الذي يعبّر عنه العهد الجديد، وآباء القرون الأربعة الأولى. فيسوع المسيح الإنسان هو نفسه ابن الله وكلمته الذي صار إنسانًا كي يصير الإنسان إلهًا بالنعمة. هو الإله الذي تنازل وصار إنسانًا كي يخلّص الإنسان من الخطيئة والموت. هذا إيماننا المستقيم، وعليه نحيا إلى الأبد.

الرسالة

مباركٌ انتَ يا ربُّ اله آبائِنَا لأنَّكَ عدلٌ في كلّ ما صنعت بنا

فصلٌ من رسالة القديس بولس الرسول الى تيطُس (٣:٨-١٥)

يا ولدي تيطُس، صادقةٌ هي الكلمة، وإيّاها أُريد ان تقرّر حتَّى يهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيام بالأعمال الحسنة. فهذه هي الأعمال الحسنة والنافعة ❊ امَّا المباحثات الهذَيانيَّة والأَنساب والخصومات والمماحكات الناموسيَّة فاجتنبْها، فانَّها غير نافعةٍ وباطلةٌ ❊ ورجُل البِدعة، بعد الإنذار مرَّةً وأُخرى، أَعْرِض عنهُ ❊ عالِمًا انَّ مَن هو كذلك قد اعتسف وهو في الخطيئَة يقضي بنفسِه على نفسِه ❊ ومتى أرسلتُ اليك أَرْتيماس أو تيخيكوس فبادر ان تأتيَني إلى نيكوبولِس لأنّي قد عزمتُ ان أُشتّي هناك ❊ امَّا زيناس معلّم الناموس وأَبُلُّوس فاجتهدْ في تشييعهما مُتَأَهِّبَيْن لئَلَّا يُعْوِزَهُمَا شيءٌ ❊ وليتعلَّم ذوونا ان يقوموا بالأعمال الصالحة للحاجات الضروريَّة حتَّى لا يكونوا غير مثمرين ❊ يسلّم عليك جميع الذين معي ❊ سلّم على الذين يحبُّوننا في الإيمان. النعمة معكم أجمعين، آمين.

صادقة هي الكلمة للقديس يوحنا الذهبي الفم

بعد أن تكلَّم عن محبَّة الله للبشر، على عنايته الإلهيّة غير الموصوفة، وبعد أن عرَّفنا بأنفسنا وبمكانتنا عند الله، يُضيف قائلًا:

صادقةٌ هي الكلمة، وإيّاها أُريد ان تقرّر (١) حتَّى يهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيام بالأعمال الحسنة. فهذه هي الأعمال الحسنة والنافعة.

ملحوظة: (١) جاءَ في النَّصّ اليوناني حرفيًا: أن تتحدَّث بها بثقةٍ، أن تقرّر. الكلمة، كلمةُ التعليم الصحيح والبشارة، جديرة بكلّ ثقة.

«وأريد أن تقرّر هذه الأمور» أي أن تتحقّق منها، أن تثق بها، وأن تتكلّم بها مع المؤمنين ليعملوا كلَّ عمل صالح. من هنا نبتدئ أن نفهم من النصّ الصلةَ الطبيعيّة بين التعليم الصحيح والسلوك الصحيح. راجع أيضًا (تيطس ٣:٤-٧)، هذا المقطع يلخّص فحوى كلمة البشارة: الكلمة تبشّر بالخلاص بيسوع المسيح وهي صادقة.»

يقول **القديس يوحنا الذهبيّ الفم**: أي يجب عليك أن تقولَ كلَّ ذلك وأن تحثّ المؤمنين على عمل الإحسان. هذه الأقوال لا تقود فقط إلى الإحسان، إلى عدم التكبّر وعدم الإساءة، بل إلى كلّ فضيلة أُخرى.

هكذا كان **الرسول بولس** يتحدّث إلى الكورنثيين قائلًا: «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ.» (٢ كو ٨: ٩).

يتذكَّر عنايةَ الله وإحساناته الفائقة ثمَّ يحثّهم على عمل الإحسان، لا كعمل ظرفيّ، بل ليهتمّوا بممارسته باستمرار، ليهتمّوا بمساعدة المظلومين لا بالمال فقط بل بعنايتهم ورعايتهم، ليهتمّوا بمساعدة الأرامل والأيتام وسائر المحتاجين إلى عناية.

«**الأعمال الحسنة**» هي الأعمال المفيدة للبشر «النافعة للناس» (راجع تيطس ٣:١-٢).

امَّا المباحثات الهذَيانيَّة والأَنساب والخصومات والمماحكات الناموسيَّة فاجتنبْها، فانَّها غير نافعةٍ وباطلةٌ. (تيطس ٣:٩).

ما هو القصد من لفظة «الانساب»؟ لقد وردت هذه اللفظة أيضًا في رسالة **بولس** إلى **تيموثاوس**: «وَلَا يُصْغُوا إِلَى خُرَافَاتٍ وَأَنْسَابٍ ...» (١ تيمو ١:٤). لعلّه في هذين الموضعين، يقصد اليهود الذين يفتخرون بأنَّهم نسلُ ابراهيم، ولا يُبالون بما يختصّ بخطاياهم. لذلك يصف الأنساب والمباحثات بأنَّها غيرُ نافعة لأنَّ الإيمان بأمور غير نافعة دليلٌ على الغباوة والجهل

«الخصومات» مع الهراطقة، وهي لا تنفع شيئًا. يقول: «اجتنبها»، حتى لا نتعب بدون جدوى وبدون أيّة نتيجة. لأنَّ الذي ينحرف عن سابق تصميم لا يتبدّل، ولذلك من يُتعب نفسه بمجادلته، يشبه من يرمي الزرعَ على الحجارة. أمَّا أنت فعليك أن تتعب في سبيل أخصّائك وتكلّمهم على الإحسان والفضائل الأخرى.

ورجُل البِدعة (٢)، بعد الإنذار مرَّةً وأُخرى، أَعْرِض عنهُ ❊ عالِمًا انَّ مَن هو كذلك قد اعتسف وهو في الخطيئَة يقضي بنفسِه على نفسِه.

ملحوظة: (٢) هرطوقيّ جاءت في الأصل اليونانيّ من الفعل يُجزِّئ، يسبّب شقاقًا. راجع (رو١٦:١٧)، (١كور ١١:١٩) و (غلاطية ٥:٢٠). رجل البدعة: هو الرجل الذي ينتقي من التعاليم ما يراه مناسبًا ويفسّره بحسب أفكاره وأهوائه، ويستقي الأفكار من أيّ مصدر يستسيغه جاعلًا نفسَه المرجع النهائيّ في التعليم. (رعيتي ٤٢/١٩٩٣).

كيف يقول في مكان آخر: «عَسَى أَنْ يُعْطِيَهُمُ اللهُ تَوْبَةً لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ،» (٢ تي ٢: ٢٥). في الرسالة الثانية إلى أهل تيموثاوس يتكلَّم على من كان فيهم رجاءُ الإصلاح، وهم يقاومون بموقفهم فقط. أمَّا هنا، في الرسالة إلى تيطس، فهو يتكلَّم على من كان موقفُهم مخالفًا ويعرفه الجميعُ بوضوح. ويقول: لماذا نتعب باطلًا معهم، لماذا تضرب هكذا في الهواء؟

وعندما يقول: «محكومًا عليه من نفسه» يقصد الذين لا يستطيعون القول: لم يكلّمني أحدٌ عن الموضوع، لم يرشدني أحدٌ. عندما يبقى الإنسانُ على موقف بعد النصيحة، يكون قد حَكَمَ على نفسه. راجع (رو١٦:١٧) ، (١كور ١١:١٩) و (غلاطية ٥:٢٠).

كيف ينصح تيطس في مكان آخر: «هَؤُلاءِ يَجِبُ أَنْ تُسَدَّ أَفْوَاهُهُمْ» (تيطس ١:١١). بينما يقول هنا: «أَعْرِضْ عَنْهُم»؟ إن كانوا يهدمون بيوتَ الآخرين، كما يقول في الآية : «فَهُمْ يُخْرِبُونَ بُيُوتًا بِجُمْلَتِهَا.» (تيطس ١:١١)، عليكَ أن تحاربَهم وتواجهَهم بقوّة. وإلَّا تجنَّبهم لأنّهم يُخطئون ويحكمون على أنفسهم. (٣:١١).

كُلُّ إنسان غيرُ قابلٍ للإصلاح يُدعَى **هرطوقيًّا، رجلَ بدعة**. إن كُنَّا نعرض عن أناس تغييرُهم ممكن لَكُنَّا مهملين. لكن إن حاولنا معالجةَ من كانت أمراضُهم لا شفاءَ لها، نكون من الأغبياء.

ومتى أرسلتُ اليك أَرْتِيماس أو تيخيكوس(٣) فبادر ان تأتيَني إلى نيكوبولس (٤) لأنّي قد عزمتُ ان أُشتّي هنا.

ماذا تقول؟ لقد تركته في جزيرة كريت، وأنتَ تدعوه من جديد إليكَ؟ هذا لا لتبعدَه عن مهمّته بل لترشدَه أكثر.

امَّا زيناس معلّم الناموس وأَبُلُّوس فاجتهدْ في تشييعهما مُتَأَهِّبَيْن لئَلَّا يُعْوِزَهُمَا شيءٌ.

هؤلاء لم يتسلَّموا كنائس، بل كانوا رُفقاء بولس.

كان أبلّوس مشهودًا بنشاطه، «فصيحًا ومقتدرًا في الكتب» (أع ١٨:٢٣). «الناموسيّ» أي العارف في النواميس اليهوديّة، هذا لا يمنعه من أن يتزوَّد بالمعونة والمال على يد تيطس. وكأنَّ بولس يقول لتلميذه عليكَ أن تزوّدهما حتّى لا ينقصهما شيء.

وليتعلَّم ذوونا ان يقوموا بالأعمال الصالحة للحاجات الضروريَّة حتَّى لا يكونوا غير مثمرين ❊ يسلّم عليك جميع الذين معي ❊ سلّم على الذين يحبُّوننا في الإيمان. النعمة معكم أجمعين، آمين.

ماذا يعني بقوله: « ويتعلَّم ذوونا ان يقوموا بالاعمال الصالحة»؟ أي ألَّا ينتظر المؤمنون القادرون على الإحسان أن يأتي إليهم المحتاجون، بل أن يبادروا هم ويهتمّوا بحاجاتهم، لأنَّ الذي يهتم هكذا، هكذا يعمل، ويعمله بحماسٍ كبير.

ألا يقدر المسيح الذي أطعَمَ خمسة آلاف بخمسِ خبزات أن يُطعِم نفسَه وتلاميذه؟ لماذا إذًا يَدَعُ النسوةَ تخدمنه؟ (مر ١٥:٤١). هذا لكي يعلّمنا نحن أيضًا أن نهتمّ بأولئك الذين يحسنون.

ألَم يَكُن بولس باستطاعته أن يسدّ حاجاته وحاجات من معه وألَّا يأخذَ شيئًا من أحد؟ تسمعه يقول: « لَيْسَ أَنِّي أَطْلُبُ الْعَطِيَّةَ، بَلْ أَطْلُبُ الثَّمَرَ الْمُتَكَاثِرَ لِحِسَابِكُمْ.» (في٤:١٧). منذ البدء كان المؤمنون يبيعون أملاكهم ويضعون المال على أقدام الرُسل، ممّا يدل على أنَّ هؤلاء كانوا يهتمّون بالمؤمنين المُحسنين أكثر من الفقراء مباشرة.

اعطِ من مالك لا من أجل إطعام الفقراء فقط، بل من أجل التحرّر من الهلاك. وكذلك قال المسيح:«إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي.» (مت١٩:٢١). هذا لفائدة هؤلاء الذين سوفَ يتبعونه.

ملحوظة: (٣) يُرسل أرتيماس أو تيخيكوس ليأخذ مكان تيطس. أمَّا تيخيكس فقد ذُكِرَ في أعمال الرسل (٢٠:٤). رافقَ بولس من مكدونيا إلى سورية ومنها إلى روما.

(٤) نيكوبولس في منطقة إبيروس على شاطىء اليونان الغربي.

أمَّا «مريم العذراء» فقد كانت بحقّ فخر الجنس البشري، استطاعت أن تردَّ للمرأة كرامتها، ولحواء الاولى قُدْسِيَّتها، فهي: الممتلئة نعمة، جبل الخلاص الذي رآه دانيال وقد قُطِعَ منه حجر بغير يد انسان، الجبل الدسم الذي ذكر داود انَّه مَسكن الإله الديَّان، كنز النعمة، القبة الحقيقيَّة المشتملة على رئيس أحبار الخيرات، السماء الجديدة المُشرق منها شمس البِرّ، المنارة الحاملة مصباح الحياة، مجمرة الذهب التي حملت جمر نار اللاهوت، الحمامة النقيَّة التي بشَّرت العالم بانكشاف أرض الغفران، عصا هارون التي أفرخت، العليقة التي رآها موسى في البريَّة، تابوت العهد المُغَشَّى بالذهب الخالص، وفيه المَنّ السماوي، الكرمة الحقيقيّة الحاملة عنقود الحياة».

تغنَّى فيها الشعراء والحكماء فقالوا:

جبريل أضحى من بهائكِ خاشعًا
مُتَهيِّبًا اذ قد عَلاهُ حَياءُ
فيكِ الصفاء وأنتِ أعذب مورد
سبحان من سوَّاكِ يا عذراءُ !!

هويّتها ونشأتُها:

هي **أخت القدّيس باسيليوس الكبير والقدّيس غريغوريوس النيصصيّ**، والبكر في عائلة قوامها عشرة أولاد جُلُّهُمْ قديسون. أبصرت النور سنة ٣٢٧م في **الكبادوك**.

نشأت على الأخلاق الحميدة، وتربّت بحسب ما أوصى به الكتاب المقدّس. كانت مزامير داود ترافقها في كلّ أنشطتها: في نهوضها، في انكبابها على العمل، في استكمالها له، قبل المائدة وبعدها قبل النوم، وفي النهوض ليلًا للصّلاة. سُمّيت **مكرينا** على اسم جدَّتها مكرينا الكبرى. دعاها القدّيس غريغوريوس النيصصي «**الكبيرة**»، أو «**مكرينا الكبيرة**» و«**القدّيسة**» و«**المطوَّبة**» و«**النفس الإلهيّة**»، وكتب رسالة بعنوان «رسالة حول حياة القدّيسة مكرينا» شرح فيها:

« امرأة كانت موضوع خبرنا، هذه استطعنا أن ندعوها امرأة، لأنّي لا أعرف إن كان يليق أن ندعو بلفظ «طبيعة» تلك التي ارتفعت فوق الطبيعة... فالعذراء التي نتكلّم عنها لم تكن من أسرة غريبة عن أسرتنا... وإلّا لوجب علينا أن نعرف بواسطة آخرين العجائب التي تتعلّق بها . بل هي وُلدَت من والدينا: هي كانت – في شكل من الأشكال – باكورة الثّمار الآتية، فكانت أوّل من نبتَ من حشا أمّنا... » (١:١٨-٢٤).

«كان لنا أخت، معلّمة حياة، أمّ بعد أمّنا، امتلكت دالّة وثقة أمام الله، بحيث كانت لنا «بُرجًا قويًا» (مز ٦١:٤) وسلاحًا يحيط بأرضنا (مز ٥:١٣) و«مدينة حصينة» (مز ٣١:٢٢) وكلّ أنواع الحماية، بسبب هذه الدالّة أمام الله التي ميّزت حياتها، عاشت في عمق البنطس بعد أن انعزلت عن حياة الناس. وأحاطت بها جوقة عديدة من العذارى اللواتي ولدتهنّ ولادة روحيّة، وجعلت كلّ اهتمامها بأن تقودهنّ إلى الكمال، مقتدية، في جسد بشريّ حياة الملائكة.» (الرّسالة ١٩).

حياتُها النسكية:

بعد أن رقد والدها سنة ٣٤١م، تسلّمت إدارة الملكيّة العائليّة الواسعة في **البنطس وبلاد الكبادوك وأرمينيا**. وهكذا بمثالها الطيّب، دعت **أمّها إميليا** إلى التحوّل صوب الخيرات التي لا تفنى، أي التأمّل في الله والحقّ والفلسفة والحكمة أي الحكمة الإلهيّة التي تقودنا إلى الملكوت في حياة الشركة.

فسلكتا معًا في الحياة النسكيّة وأقبلتا على القراءة والتأمّل في الكتب المقدَّسة. وكانت للجميع حامية ومربيّة ونموذج فضيلة في آنٍ.

عاشت الحياة النسكيّة في **البنطس، قرب البحر الأسود**، حيث امتلكت الأسرة أرضًا واسعة بجانب **إيبورا**. وكانت **والدتها إيميليا** وضعت هناك ذخائر **من الأربعين شهيدًا في سبسطية**.

إسم القرية هي «**أنيسا**» الواقعة فوق تلّة تشرف على وادٍ، كان دير للرّاهبات من جهة، ودير للرّهبان من الجهة الثانية. ديران قريبان الواحد من الآخر عاشت **القدّيسة** ورفيقاتها في معتزلهنّ في سيرة على الحدود بين الطبيعة البشريّة والطبيعة الملائكيّة. لم يكن يُرى لديهنّ **غضب، أو حسد، أو حقد، أو تعاظم** أو شيء مثل ذلك.

بلغت **مكرينا** حدًّا من اللاهوى، جعلها مثالًا في ضبط النّفس والإيمان بالحياة الأبديّة. خاصّةً بعدما تعرّضت للعديد من الحوادث التي أصابت عائلتها كوفاة أخويها **نكراتيوس، وباسيليوس**، ووفاة بعض شريكاتها في الأخويّة.

وفي الرسالة نفسها: نحن نقرأ زيارة أحد أصدقاء الأسرة إلى هذا المكان:

«رغبتنا في يوم من الأيّام رغبة كبيرة، أنا وامرأتي، أن نمضي إلى «مدرسة» الفضائل: هكذا ينبغي .كما أظنّ . أن ندعو المكان الذي كانت فيه ابنتنا الصّغيرة التي كانت تتألّم في عينها على أثر مرضٍ مُعْدٍ... وما دخلنا إلى هذا الموضع الإلهيّ حتّى انفصلنا أنا وامرأتي، فمضيتُ أنا حيث يقيم الرّجال، وامرأتي في دير العذارى...» (٣٧/١-١٠).

ويتابع في رسالته:

في **أنيسا** عزمت **مكرينا** أن تقيم، أن تعيش حياة «الحكمة» كما كانوا يدعون الحياة الديريّة، وكان عمرها اثنتي عشرة سنة. وذلك بعد موت

خطيبها الذي اختاره لها والدها. هذه التي وُلدت حوالي سنة ٣٢٧م قبل **باسيليوس** بسنة أو سنتين.

عزمت حوالي سنة ٣٤٠م أن تعيش الحياة النسكيّة. أن تحافظ على حرّيتها لتحيا حياة العذارى. فبدأت حياتها هذه في قلب أسرتها، قرب والدتها قبل أن تنطلق إلى الدّير في حياة مشتركة. هي تعمل بيديها في البيت، فتغزل الصّوف. وأضافت عملًا متواضعًا كان محفوظًا للعبيد: كانت تعدّ الخبز للأسرة. أمّا **باسيليوس** أخوها فكان يفلح الأرض.

هي تربية مسيحيّة كما أخوها **بطرس**، الذي لم يكن له ما كان لإخوته الأكبر منه. وباسيل وناوكراتيوس وغريغوار من تربية كلاسيكيّة دنيويّة في **أثينا** أو في عواصم أخرى.

كان **لمكرينا** أخ آخر وكان لها عونًا كبيرًا في جهادها نحو هذا المثال السّامي من الحياة. اسمه **بطرس**. وولادته وضعت حدًّا لِحَبَلِ أمّنا. فهو كان آخر ولد لِوالِدَينا. تلقّى اسم «ابن» و«يتيم» لأنّه يوم وُلد إلى النّور، ترك والده هذه الدنيا. وما إن فُطم حتّى أخذته أخته الكبرى – التي هي موضوع حديثنا – من المُرضعة واعتنت به. قرّبته من أسمى ثقافة، فمارس منذ الطفولة العلوم المقدّسة وما ترك لنفسه فرصة لكي تميل إلى هذه الترّهات...» (١٢/١ – ١٠).

هنا نذكر تأثير **أوستات ابن سبسطية** الذي كان له دور بارز في تاريخ الحياة الرّهبانيّة، في **آسية الصُّغرى**، كما نشر الحياة الرُّهبانيّة في **أرمينيا** وفي **جوار البحر الأسود**. كتب إليه **القدّيس باسيليوس** فقال: «كم مرّة زرتنا في الدّير على **شاطئ إيريس**، حين كنتُ مع الأخ المحبوب **غريغوريوس**، الذي كان يحاول أن يحقّق ذات مثال الحياة التي أعيشها أنا. كم من الأيّام قضيناها في القرية، على الضفّة الأخرى، عند أمّي. حيث كنّا نتبادل الحوار كأصدقاء فنتكلّم نهارًا وليلًا.»

مثال الحكمة، ومثال الحياة الرّهبانيّة:

شدّد **القدّيس غريغوريوس النيصصي** أنّ **مكرينا** أدركت « أعلى ذروة من الفضيلة يبلغها إنسان» (٢٨/١). وكُلُّ كلامها عن الحكمة أو الفلسفة كان مقصودًا به ما قاله سابقًا **القدّيس يوستينس الشهيد** (القرن الثاني ميلادي) أنَّ الحكمة الحقيقيّة هي **المسيح**.

ويشرح **القدّيس غريغوريوس** أهميّة الحضن العائلي فيتكلّم عن سمات ثلاث:

السمة الأولى: النمو الصحيح:

نشأت **مكرينا** على تعاليم والدينا وقراءة الأسفار الحكميّة. كلّ هذا علّمها ما ينبغي أن تعمل وما ينبغي ألّا تعمل، وجعل في قلبها الرّغبة في الحكمة وقراءة سفر الأمثال. في سنّ المراهقة، عرفت **بطلان العالم** كما قرأته في سفر الجامعة. وحين نضجت أضحت عروس نشيد الأناشيد.

السِّمة الثانية: التحرّر من الأهواء البشريّة:

«ما كانت تجد عند **مكرينا** وأخواتها في الدير غضبًا ولا حسدًا، لا حقدًا ولا تشامخًا... ولا شيء يشبه ذلك. أبعدت كلّ رغبة باطلة، الكرامة أو المجد أو الطموح أو الكبرياء، وكلّ ما يشبه ذلك» (٢/١١ – ٢٤).

عن هذا التحرُّر الذي يجد ذروته في الأهواء، أعطت **مكرينا** البرهان خلال ما حلّ بها من حزن وآلام. كانت سيّدة نفسها، بل أعانت أمّها. حين جعلت العقل تجاه الوجع والهوى. وأمام موتها، دلّت على تحرّرها التامّ من أهواء اللّحم والدّم. وهكذا رأى فيها أخوها: «ملاكًا اتّخذ – بعناية من لدن الله – صورة بشريّة، بدون أيّ تعلّق بالحياة البشريّة» (٢/٢٧–٢٩).

السِّمة الثالثة: مكرينا أضحت ملاكًا:

وصف **القدّيس غريغوريوس** حياة **مكرينا** بأنّها كانت حياة ملائكيّة، سماويّة لا ماديّة، خفيفة ترتفع وترتفع. (١٢/٢٨ ؛ ١٥/٢٤) تحرّر تامّ، واقتراب من الاستغراق في مشاهدة الأمور العلويّة «اللّاجسديّة والعقليّة». «ارتفعت فوق الطبيعة» (١/ ١٦–١٧). بل هي وصلت إلى تخوم الطبيعة البشريّة وإلى الحياة اللّاجسديّة (١١/٣٤–٣٥). هي على التخوم، لأنّها تعيش في اللّحم والدّم، مع أنّها تحرّرت من الأهواء. هي تشارك في الحياة الطبيعيّة، ولكنّها فوقها، فلا شيء يدفعها إلى أسفل. فالميزان يميل إلى الطبيعة اللّاجسديّة. فأضحت **مكرينا** مساوية للملائكة في الاستغراق، بل هي عادت إلى مجتمع الملائكة، «فسارت في الأعالي مع القوى السماويّة».

وهكذا في نهاية هذا الصّعود، يكون اللّقاء بالمسيح. وما عادت تسير وراء أمرٍ مجرّدٍ، بل وراء شخص حيٍّ، حاضر اليوم وكلّ يوم. وهذا ما نشعر به في آخر ساعات **مكرينا** على الأرض: دلّت «على هذا الحبّ الإلهيّ والطاهر للعريس اللّامنظور... والرّغبة التي تدفع قلبها لأن تعمل نحو حبيبها» (٢٢/٣١–٣٥)، هو البحث عن الحبيب كما في نشيد الأناشيد. وفي النهاية، أضحت **مكرينا** تلك المعلّمة التي حاولت أن تجتذب أُخيّاتها إلى الذُّرى التي وصلت هي إليها. وهكذا لبثت **مكرينا** حيّة في وسط جماعاتنا المسيحيّة. ولولا كتاب **غريغوار**، لغابت في النسيان، ولكن لا. فخصب الحياة «الفلسفيّة» كما دُعيت الحياةالرُّهبانيَّة، ما زال حاضرًا اليوم وكلّ يوم.

رُقادُها:

مرضت قدّيسة الله وأضناها المرض إلى أن رقدت بسلام واضعةً روحها الطاهرة بين يدي الرّبّ الذي كانت تتعجّل الانضمام إليه. فبعد أن زارها أخوها **القدّيس غريغوريوس النيصصيّ** بعد تسع سنوات من الغياب، تحدّثا كثيرًا عن طبيعة الإنسان ومعنى الخَلْقِ والنفس وقيامة الأجساد، رسمت إشارة الصّليب على عينيها وفمها وقلبها بعد أن صلّت، ثم رقدت. ووريت قدّيسة الله الثرى في **إيبورا**، في الضّريح الذي ضمّ رفات ذَوَيها، في كنيسة الأربعين شهيدًا. ترأّس خدمة الراقدين أخوها **القدّيس غريغوريوس النيصصيّ**.

القدّيس غريغوريوس النيصصيّ ورؤيا حول **البارّة مكرينا** عند رقادها كما كتبها في «رسالة حول حياة القدّيسة مكرينا» شرح فيها:

«الجسد المقدّس» و«الجمال المقدّس» و«الوجه الإلهيّ» هكذا يصف **القدّيس غريغوريوس مكرينا**.

فقد حلم بشقيقته **مكرينا** شارحًا: «بعد أن كنتُ أنهيتُ القسم الأكبر من الطريق، بحيث لم يبقَ لي سوى مسيرة يوم واحد لأصلَ إلى الدّير، حصلت في الحلم على رؤيا جعلتني أتصوّر من أجل المستقبل، تخوّفات معتّمة. بدا لي وكأنّي في يد ذخائر الشهداء، ومنها يخرج شعاع يشبه شعاع مرآة لمَّاعة، موضوعة تجاه الشمس، بحيث إنّ عينيّ عميتا لبهاء هذه الأشعّة. مثل هذه الرؤيا ظهرت لي ثلاث مرّات في تلك الليلة. وإذا كنتُ لم أفهم بوضوح المعنى الخفيّ لهذا الحُلْمِ فإنّي كنتُ أشتفّ مع ذلك بعض الغمّ لنفسي، منتظرًا ما يلي من الأحداث لكي أحكم على هذا الظهور حكمًا صائبًا» (١٢/١٥-٢٤).

وحين وصل **القدّيس غريغوريوس** إلى **مكرينا**، رأى فيها «ذخائر قدّيس شهيد، جسدًا مات عن الخطيئة، ويشعّ بنعمة الرّوح القدس فيهم» أو «فيها» (١٣/١٩-١٥).

وبعد موت **مكرينا**، لاحظ **القدّيس غريغوريوس** أنّ جسمها يشعّ، مع أنّه ارتدى لباسًا معتّمًا (أي لباس الرهبنة الأسود) «كما رأيتُ في حلمي». فلا شكّ في أنَّ « القوّة الإلهيّة أضافت أيضًا هذه النعمة إلى جسمها بحيث بدا أنَّ من جسمها يتفجّر نور بهيّ» (٣٢/٨-١٢).

والسّهرة قرب جثمان **مكرينا** امتدّت في مزامير وفي أناشيد كما في وداع الشّهداء. قال: «وإذ كنّا مهتمّين بهذه الاسعدادات، وَتَرِنُّ حولنا مزامير تنشدها العذراء، ممزوجة بالرّثاء والبكاء، انتشر خبر موتها. لستُ أدري كيف. فجأة في كلّ مكان، في المنطقة المجاورة. وجميع الذين كانوا ساكنين هناك، بدأوا يتوافدون بعددٍ كبير جدًا بحيث إنَّ الرواق ما كان ليضمّ جميع الواصلين» (٣٣/١-٦). وبعد أن اهتمّوا **بمكرينا** في ما يتعلّق باللّباس الذي يكون من الكتّان، حملها أسقفان وكاهنان إلى جوار الشّهداء، والجميع ينشدون المزامير مع نشيد الفتيان الثلاثة في أتون النّار (دا ٣:٥١).

نكتشف من رسالة القدّيس صلاة البارّة مكرينا:

اعتادت البارّة **مكرينا** بالتوجّه إلى الرَّبّ يسوع المسيح بالمخاطبة كونه إلهًا شخصيًا متجسّدًا قريبًا منّا:

– أنت يا ربّ، أعتقتنا من خوف الموت. (عب٢:١٥).

– أنت جعلتَ لنا من نهاية الحياة على الأرض، بداية الحياة الحقيقيّة.

– أنت تترك جسدنا يرتاح وقتًا في رقاد، وتوقظه من جديد حين يصوّت البوق الأخير. (١كور ١٥:٥٢).

– أنت جعلت الأرض مستودع أرضنا، التي صنعتها يداك، وها أنت تحيي أيضًا ما أعطيته لها، فتحوّل بالخلود والجمال ما هو مائت فينا ومشوّه. (١كو١٥:٥٣).

– أنت اقتلعتنا من اللّعنة ومن الخطيئة حين صرت لنا لعنة، (غلا ٣:١٣) وخطيئة. (٢كور ٥: ٢١).

– أنت حطّمت رأس التنين (مز ٧٤:١٤) الذي أمسك الإنسان بشدقه واجتذبه من هوّة العصيان.

– أنت فتحت طريق القيامة، بعد أن حطّمت أبواب الجحيم. (مت ١٦:١٨) وفرضت العجز على المالك على الموت. (عب ٢:١٤).

– أنت الذي أعطيت لخائفيك شعارًا (مز ٦٠:١٦)، علامة الصّليب المقدّس لتزيل العدوّ وتعطي الطمأنينة لحياتنا. (مز ١١:١١-١٢).

– أيّها الإله الأزليّ، نحوك انطلقتُ منذ كنت في حشا أمّي (نش ١:٧)، أنت يا من أحبّتك نفسي بكلّ قوّتها. لك كرّستُ جسمي البشريّ ونفسي منذ صباي وحتّى هذه اللّحظة. فاجعل بقربي ملاك النّور (مز ٢٣:٢) فيقودني بيد إلى مكان البرودة حيث نجد مياه الرّاحة في حِضن الآباء القدّيسين (لو١٦:٢٢) (١/٢٤-٢٩). أنت حطّمتَ شعلة سيف النّار (تك ٣:٢٤)، وأعدتَ إلى الفردوس الإنسان الذي صُلب معك ووثق برحمتك، فاذكرني أنا أيضًا في ملكوتك (لو ٢٣:٤٣). أنا أيضًا صلبتُ معك (غل ٢:١٩)، أنت يا من سمَّر بدني بمخافتك، فخفتُ أحكامك (مز ١١٩:١٢٠). فلا يفصلني الغمر (لو ١٦:٢٦) المخيف عن مختاريك. ولا يقف الحسود (أي إبليس) عليّ في طريقي، ولا تنكشف خطيئتي أمام عينيك، لأنّي ضللتُ لضعف طبيعتنا، وخطئت بالقول والفعل والفكر.

– أنتَ يا من لك سلطانٌ على الأرض بأن تغفر الخطايا (مر٢:١٠) فاغفر لي خطاياي لكي أستعيد أنفاسي (مز٣٩:١٤). وحين أُجَرَّدُ من جسدي (كو٢:١١) لأوجد أمام وجهك بدون عيب ولا تجعيد (أف ٥:٢٧) في صورة نفسي، بل لتستقبل نفسي بين يديك، بدون لوم وبدون دَنَسٍ، مثل بَخُورٍ أمام وجهك (مز١٤١:٢)، (٣٠/٢٤-٤٦).

كما كان لها طلبات مسائية من شكر وتسبيح تتمحور حول خيرات الله وَنِعَمِهِ، وطلب غفران الخطايا، وصلاوات من أجل الراقدين، ومساعدة الملائكة، والدينونة وغيرها.

كلّ هذا يسلّط الضوء على ثلاثة أمور أساسيّة:

– **الأمر الأوّل:** تأثير المحيط العائلي ودور العائلة في تربية أولادهم.

– **الأمر الثاني:** الحياة النسكيّة والطاهرة للبارّة **مكرينا** وقوّتها في القرون الأولى للمسيحيّة. فكلّ مسيحيّ مدعو أن يكون طاهرًا ورجل صلاة.

– **الأمر الثالث:** المعرفة القويّة للكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، وهي دعوة موجّهة لنا اليوم وكلّ يوم للانكباب على الكتاب المقدّس.

الحياة النسكيّة للبارَّةِ مكرينا:

تقرّبنا من القوانين الرّسوليّة (٨/٢:٤١): «لنصلِّ... إلى الله الذي يحبّ البشر، يتقبّل نفسه ويغفر له كلّ خطاياه... ليُجلِسَه في موضع القدّيسين، في حِضن إبراهيم وإسحق ويعقوب... اغفر له إن كان خَطِئَ إراديًا أم لا، واجعل قربه الملائكة الخيّرين، واجعله في حضن الآباء والأنبياء».

ونقرأ في الليتورجيّا اليونانيّة المتأخّرة «يا إله الأرواح وكلّ بشر أنتَ دُستَ برجليك الموت وغلبتَ إبليس ومنحتَ الحياة لعالمك. أنت يا ربّ، أرحْ نفس عبدك في مكان النّور، في مكان الاخضرار، في مكان البرودة، الذي هرب منه الوجع والغمّ والتنّهد. وكلّ خطيئة اقترفها بالقول أو بالفعل أو بالفكر، اغفر له يا الله الصّالح ومحبّ البشر».

عيد رقاد سيّدتنا والدة الإله الفائقة القداسة وانتقالها الى السماء

ثمّة كتابات تُنسب إلى القدّيس يوحنا الإنجيلي والقدّيس مليتون أسقف صردة والقدّيس ديونيسيوس الأريوباغي تشير إلى **انتقال مريم، والدة الإله**. هذه تعود إلى حدود القرن الخامس للميلاد. وهناك عظات تتحدّث عن **رقاد وانتقال والدة الإله** لدى قدّيسين أمثال أندراوس الكريتي ويوحنا الدّمشقي وجرمانوس القسطنطيني وثيودوروس الستوديتي وغريغوريوس بالاماس. العناصر الأساسية للعيد مُعَبَّر عنها بوضوح في الخدمة الليتورجية.

والدة الإله ذاقت الموت، رقدت، وأُودعت القبر، لكنها لم تعرف فسادًا لأنّها انتقلت إلى السماء. **في كاثسما سَحر العيد** نخاطبها على هذا النحو: « أمَّا في ميلادك فَحَبَلٌ بغيرِ زَرْعٍ، وأمّا في رقادك فموت بغير فساد». **وفي الأودية التاسعة من صلاة السَّحَرِ** نقول: « إن المولد بتولي والموت قد صار عربونًا للحياة».

من جهة أخرى، **في صلاة الغروب، في برصومية على يا رب إليك صرخت**: « أن ينبوع الحياة قد وُضِعَت في قبرٍ، واللَّحْدُ قد صار سُلَّمًا مِصْعَدًا إلى السماء».

هكذا انتقلتِ من حياة إلى حياة (**الغروب. قطعة الليتين**).

انتقلت من الأرض إلى السماء، وكان انتقالها بِتَمْجيدٍ وبحالٍ تفوق الوصف على يدي ابنها وسيّدها (**الغروب. قطعة الأبوستيخن**).

كلّ الأرض والسماء معنيّة برقادها. لذلك نشدّد « أن السلطات والكراسي والرئاسات والأرباب والقوّات والشروبيم والسارافيم المرهوبين يمجّدون رُقَادَك. ويبتهج الأرضيّون مزيّنين بمجدك الإلهي، وتسجد الملوك مع رؤساء الملائكة والملائكة يرنمون...» (**برصومية على يا رب إليك صرخت. صلاة الغروب**).

كذلك **في صلاة السحر** أنَّ رقادها كان حدثًا كونيًّا إذ: «انتقلتِ برقادكِ المُوَقِّر إلى الحياة الخالدة محفوفة بالملائكة والرئاسات والرسل والأنبياء وسائر الخليقة» (**صلاة السحر. قطعة الإينوس الثالثة**).

من هنا مخاطبتنا لها باعتبارها الطاهرة الحيّة على الدوام مع **ابنها اللابس الحياة** (**قطعة المجد والآن على يا رب إليك صرخت. صلاة الغروب**).

بهذا صار لها من حيث هذه المعيّة، دور مشارك **في خلاص البشريّة**.

رقادها جعلها مساهمة في **خلاص العالم** على أوسع نطاق. **في إحدى طروباريات الأودية التاسعة** نعبّر عن هذا المُعْطَى الجديد بالكلمات التالية: «يا والدة الإله بما أنكِ منطلقة إلى الأخدار السماويّة نحو ابنك فأنت تخلصين ميراثك دائمًا».

في هذا السياق، الذي حدّدته الخدمة الليتورجيّة، كتب القدّيس غريغوريوس بالاماس يقول: « اليوم نحتفل برقادها أو انتقالها المقدّس إلى حياةٍ أخرى. فإذ هي دون الملائكة قليلًا، لمواتيتها، فإنّها، بِدُنُوِّهَا من إله الكل، قد سَمَت على الملائكة ورؤساء الملائكة وكلّ القوات السماويّة الأرفع منها».

وفي عظة للقدّيس ثيودوروس الستوديتي **في رقاد والدة الإله** هذه الالتماعات:« إذ نحمل على ظهورنا ثوب الفضائل نحتفل بعيد دفن وعبور الكليّة القداسة إلى السماء. فإن السماء على الأرض، لما اتّشحت بثوب الخلود، انتقلت اليوم إلى الخِدْرِ السماويّ الأبديّ. اليوم والدة الإله، التي أطبقت عينيها الجسديتين، تقدّم لنا أنوارًا مقدّسة مُشِعّة، كانت، إلى عهدٍ قريب، غير مألوفة، وهي السَّهر على العالم والضراعة من أجله أمام وجه الله. اليوم، وقد أضحت خالدة، ترفع يديها إلى الرّب من أجل خلاص العالم. لأنّها سَمَتْ إلى القمم فإنّها، كحمامة نقيّة، لا تَكُفُّ عن الذَّودِ عنَّا هٰهنا. أمَّا وقد ارتفعت إلى السماء فإنها تطرد الأبالسة لأنّها صلاة الشفاعة، من جهتنا، لدى الله. الموت قبلًا بسط سلطانه من خلال أُمّنا حواء لكنّه، حالما مسّ ابنتها المغبوطة، مات بموتها لأنه غُلِبَ من ذاك الذي استمدَّت منه والدة الإله قوّتها. والدة الإله، وأقول رقدت لا انطفأت، لأنها منذ أن عبرت إلى السماء لم تَكُفَّ هناك عن الذَّودِ عن الجنس البشريّ. بأي كلمات نصف سرّك؟ فإن الذهن ينحني، واللسان **يبينُ** عاجزًا لأن مجد هذا السرّ يفوق كلّ ذهن. لا شيء يضاهيه ويتيح لنا أن نفسّره على نحو أو على آخر: كلّ ما هو منك يتخطّانا. فقد عدّلت ما للطبيعة بميلادك الذي لا يوصف. (**يبين أصح من يستبين**).

من سَبَقَ أن سَمِعَ بعذراء تحبل بغير زَرْعٍ؟ يا لَلْعَجَبِ! هذه الأُم التي

تلد هي أيضًا عذراء عفيفة، فإنَّ من يولد منها هو الله. هذا الأمر وحده يجعلها مختلفة عن الجميع. لذا تقتبلين عن حقٍّ في رقادك المُحْيِي، خلود النفس والجسد (...)

هل سبق لنا أن سمعنا عن وفاة كالوفاة التي أُهِّلَت لها والدة الإله؟ كم ذلك عادلٌ لأنّه لا أعلى من التي هي أعلى من الكل؟ إن نفسي تندهش متى ارتحل عقلي إلى رحيلك الفاخر، أيّتها العذراء! نفسي تعجب إذ تهذُّ في رقادك العجيب! لساني يُعتقلُ متى تكلّمتُ عن قيامتك السِّرِّيَّةِ؟ من تُراه، في الحقيقة، أهلًا لِسَرْدِ كُلِّ عجائبكِ؟ أيّ ذهن مهما سَمَا يقدر وأيّ لسان مهما كان فصيحًا، يحيط بقيمة أفعالك ويعرض ويقيم أسرار مجدك وعيدك ومديحك؟

كلّ لسان ينضب وَيَهِنُ إن حاول، لأنَّكِ تفوقين وَتَسْمِينَ بغير قياس، على القِمَمِ السماوية الشاهقة، وبهاء نورك أكثر ألَقًا من الشمس، وقد حُزْتِ على ما يزيد عظمة عن الملائكة وكلّ القوّات الروحيّة غير المتجسّمة». (أقوال القديس ثيودورس الستوديتي) .

هذه **المعاني الفائقة لوالدة الإله**، وخصوصًا **لرقادها**، وردت في التراث على نحو قصصيّ.

فقد قيل إنَّ **الرّب يسوع** أعلم **والدة الإله برقادها** بملاك، قبل حدوثه بثلاثة أيام. هذا مَلَأَهَا فرحًا لأنّها اشتهت أن تصعد إلى ابنها وإلهها. لذلك توجّهت إلى جبل الزيتون لتصلّي في سكون، كما كانت عادتها. وقد ورد أنّها لما بلغت القمّة خضعت لها الأشجار. بعد ذلك عادت لترتّب أمرها، وأذاعت على النسوة اللواتي أتين إليها خبر ارتحالها إلى السماء. وإثباتًا لذلك استودعتهن غصن النخيل، رمز الغلبة وعدم الفساد، الذي زوّدَهَا به الملاك. وإذ حَزِنَّ لخبر فراقها أكّدت لَهُنَّ أنّها ولو رحلت إلى السماء فإنّها لن تكفّ عن الذَّودِ عنهن وعن كلّ العالم، بصلاتها.

هذا وقد ذُكر أنَّ البيت امتلأ غيمًا سماويًّا، أُحْضِرَ الرُّسل من أطراف الأرض. الكنيسة كلّها، بأشخاص الرُّسل، تواجدت سِرِيًّا، احتفاءً **بجنازة والدة الإله**. وإلى جوق الرسل انضم الأساقفة القدّيسون نظير القدّيس إيروثاوس الأثنائي، المُعَيَّدِ له في ٤ تشرين الأول، وديونيسيوس الأريوباغي، المُعَيَّدِ له في ٣ تشرين الأول، وتيموثاوس الأفسسي، المُعَيَّدِ له في ٢٢ كانون الثاني. الرسول بولس كان أيضًا حاضرًا.

وبحسب القدّيس يوحنا الدمشقي، حضر عدد من أنبياء العهد القديم. وقيل إنَّ حنّة، أم والدة الإله، مع إليصابات وإبراهيم وإسحق ويعقوب وداود كانوا حاضرين.

رقدت والدة الإله بسلام واستقرّت، أبهى من كلّ نور، بين يدي **ابنها وإلهها** الذي ظهر بمعيّة رئيس الملائكة ميخائيل وجوق من الملائكة. تمّ رقادها بلا ألم وبلا قلق، كما كان وضعها لابنها دون أوجاع. تداخلت أصوات الملائكة بأصوات البشر **إكرامًا لرقادها**. تنقّى الهواء بصعود نفسها وتقدّست الأرض باقتبال جسدها. وقد استعاد العديد من المرضى عافيتهم. **حسد اليهود وحقدهم** جرى التعبير عنه بإثارة زعمائهم قومًا للتعرّض للمحمل الذي سُجِّيت عليه **والدة الإله**. وإذ تجاسر كاهن اسمه، **يلفونياس** على الدنو منها قطعت يداه. لكنّه تاب وآمن واستعاد اليدين بنعمة الله. وآخرون ضُرِبُوا بالعمى، لكنهم آمنوا بالرّب يسوع وجرى شفاؤهم.

جرى دفن **والدة الإله** في بستان الجثسمانية. هناك أقام الرسل مع الملائكة في الصلاة ثلاثة أيّام. توما الرسول، تدبيرًا، لم يحضر الجنازة. وصل إلى جثسماني في اليوم الثالث وقد استبدّ به حزنٌ عميق. كان يرغب في أن يلقي نظرة أخيرة على **والدة الإله** راقدة ليتبرّك منها. ولأجل إصراره قرّر الرسل فتح الضريح ليتسنّى لتوما أن يُكَرِّم الجسد المقدّس. فلما رفعوا الحجر الذي يسد المدخل استبدّ بهم الدهش لأن الجسد كان قد اختفى. وحده الكفن الذي اشتمل **والدة الإله** كان هناك وقد اتخذ شكل الجسد. كان هذا دليلًا على انتقال **والدة الإله** إلى السماء، إلى حميميَّة. (صَدَاقَةٌ حَمِيمِيَّةٌ : صَدَاقَةٌ تَحْكُمُهَا الْمَوَدَّةُ العَمِيقَةُ الْمُتَبَادَلَةُ).

مريم «ابنة آدم» التي صارت أُمًّا للإله وأُمًّا للحياة ذاقت إذًا الموت. لكن موتها لم يكن مُذِلًّا بحال، فإنه بالموت، إذ انغلب للمسيح الذي اقتبله طوعًا لخلاصنا، استحالت دينونة آدم «موتًا مُحْيِيًا» ومبدأ وجود جديد. ولحد جثسماني، كالقبر المقدس، استبان خِدرًا جرى في كليهما عرس عدم الفساد. لقد كان لائقًا، انسجامًا مع ما جرى للمسيح المخلّص، أن تعبر **والدة الإله** بكلّ السبل التي سلكها المسيح ليمد القدّاسة في طبيعتنا. فبعدما تبعته في آلامه وعاينت قيامته خَبِرَتِ الموت. ولما انفصلت عن جسدها وجدت نفسها **الكليّة النقاوة** متحدة بالنور الإلهيّ.

أما جسدها فقد بقي قليلًا في الأرض ثم قام بنعمة المسيح الناهض من بين الأموات. هذا الجسد الروحاني اقتُبل في السماء كهيكل للإله المتجسد كعرش الله. إنه الجزء الأبرز من جسد المسيح، وكثيرًا ما ماثله آباء الكنيسة بالكنيسة المقدّسة عينها، مسكن الله بين الناس وموضع حالنا الآتية ومصدر تأليهنا.

من **الحشا العفيف لمريم، والدة الإله**، انفتح لنا ملكوت السموات. لذلك صار انتقالها إلى السماء سبب فرح لكلّ المؤمنين الذين تلقّوا بذلك الضمانة أنَّ كلّ الطبيعة البشريّة، **في شخص مريم**، أضحت حاملة **للمسيح** ومدعوّة لأن تسكن في **الله**.

عجيبة تكثير الخبز والسمك

للقديس يوحنا الذهبي الفم

«فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ انْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ فِي سَفِينَةٍ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ مُنْفَرِدًا. فَسَمِعَ الْجُمُوعُ وَتَبِعُوهُ مُشَاةً مِنَ الْمُدُنِ.» (مت ١٤: ١٣).

انظروا كيف ان الرَّب **يبتعد** عندما أُسلِمَ يوحنا المعمدان، وقُطِعَ رأسه، وعندما سَمِع اليهود ان تلاميذه يتكاثرون. لأنه يريد أن تجري الأمور بطريقة إنسانيّة أكثر طالما لم يَحِنِ بعدُ الوقت لإعلان **ألوهيّته** بجهارة. لذلك كان يوصي تلاميذه بأن لا يبوحوا لأحد بأنه **المسيح** مريدًا أن يُعلِن ذلك بالأحرى بعد **قيامته**. لذلك لم يَقسُ على اليهود الجاحدين في البداية بل تصرَّفَ أمامهم بوداعة. عندما يبتعد هنا لا يذهب إلى مدينة ما، بل إلى البَرِيّة بواسطة السفينة حتى لا يتبعه أحد. لكن انتبه أنت كيف ان تلاميذ يوحنا المعمدان اقتربوا من يسوع بإلفة. لأنَّهم هم الذين أخبروه **بموت يوحنا (بعد أن قطع رأسه سَيَّاف هيرودس)**، هكذا نفهم كيف تركوا كلّ شيء بعد ذلك وتبعوا **يسوع** ...

لكن لماذا لم يبتعد من هناك قبل إعلامه بموت يوحنا علمًا بأنه كان يعلم ذلك مُسبَقًا؟ لأنه كان يريد من خلال أعماله أن يكشف حقيقة التدبير الإلهي. كان يريد أن يظهر ذلك لا بالأقوال فقط بل وبالأعمال أيضًا، لأنّه كان يعرف **مشورة الشيطان** الذي يحاول بشتى الطُرق إخفاء هذه الحقيقة.

لذلك يبتعد يسوع من هناك دون أن تتركه الجموع، لأنّها أخذت تتبعه بازدياد غير خائفة ممَّا جرَى ليوحنا المعمدان. كانت رغبتهم كبيرة ومحبّتهم أكثر إلى حدٍّ أنّهم كانوا يتجاوزون كل شيء، ويواجهون كُلّ المخاطر. لذلك حصلوا على أجرهم بطريقة مباشرة لأنَّ الانجيليّ يقول:

«فَلَمَّا خَرَجَ يَسُوعُ أَبْصَرَ جَمْعًا كَثِيرًا فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ وَشَفَى مَرْضَاهُمْ.» (مت ١٤: ١٤).

كان استعدادهم طيبًا، لكن عمل الرَّب فاقَ كُلّ أُجرة ممكنة، عن طريق اهتمامه الكبير بهم. لذا يبرّر الانجيلي شفاء المرضى بسبب **«تحنّن» يسوع** هذا التحنّن الذي امتدَّ الى الجميع. فأخذَ يشفي المرضى دون أن يشترط إيمانًا منهم. وأيضًا لأنَّهم أسرعوا إليه وغادروا المدن وطلبوه برغبة كبيرة ولازموه. رغم عنائهم من الجوع، كُلّ ذلك تعبير عن إيمانهم.

كان لَا بُدَّ له أن يُعطيهم ليأكلوا. ومع ذلك لم يَقُم هو بالمبادرة أوّلًا، انتظَرَ طلبهم لأنّه كما ذكرنا سابقًا يستخدم دائمًا هذه الطريقة في عدم صُنع العجائب إلَّا بناءً على طلبهم أولًا. لماذا لم يتقدَّم واحد من الجمع ليكلّمه باسم الكُلّ؟ ربّما لأنهم كانوا يحترمونه. وكذلك لم يشعروا حتى بالجمع لكثرة رغبتهم في المكوث معه. والتلاميذ لم يطلبوا منه أن يُطعِم الجموع لأنّهم لم يكونوا يعرفونه بعد جيدًا. فماذا حصل؟ يقول الانجيليّ:

«وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «الْمَوْضِعُ خَلاَءٌ وَالْوَقْتُ قَدْ مَضَى. اِصْرِفِ الْجُمُوعَ لِكَيْ يَمْضُوا إِلَى الْقُرَى وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ طَعَامًا». (مت ١٤: ١٥).

إنْ كان التلاميذ بعد هذه المعجزة وبعد ما بقي معهم من قُفَفٍ، نَسُوا ما حصل، واعتقدوا أنَّ الرَّب يتكلّم عن الخبز، بينما كان يُحادثهم **عن خمير الفريسيين أي تعليمهم** (راجع متى ١٦:٥-١٢ حول خمير الفريسيين)، فَكَمْ بالأحرى الآن قبل حصول المعجزة، لم يكونوا بعد قادرين أن يرجوا مثل هذا الحَدَث العجيب. لقد شَفَى طبعًا مَرضَى كثيرين، لكنهم لم يكونوا بعد على استعداد لِتَقَبُّلِ مثل هذه المعجزة، لأنَّهم كانوا بعد على درجة كبيرة من عدم الكمال الروحي.

أمَّا أنتَ فأرجوك أن تنتبه إلى حكمة المُعَلِّم، بأيّة طريقة يحثّهم على الإيمان. لم يَقُل لهم بصورة مباشرة ومنذ البداية: أنا سوفَ أُطعِمهم كونهم غير مستعدّين لتقبّل ذلك بسهولة. ماذا قال؟

«فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لاَ حَاجَةَ لَهُمْ أَنْ يَمْضُوا. أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا». (مت ١٤: ١٦).

لم يَقُل أنا سوفَ أطعمهم بل أنتم أعطوهم ليأكلوا. لأنّهم كانوا بعد يعتبرونه إنسانًا. وحتى بعد هذا كلّه، لم يرتفعوا بالرُّوح، بل تابعوا الحديث معه وكأنَّه إنسان.

«فَقَالُوا لَهُ: «لَيْسَ عِنْدَنَا هٰهُنَا إِلاَّ خَمْسَةُ أَرْغِفَةٍ وَسَمَكَتَانِ». (مت ١٤: ١٧).

ولذلك يقول الانجيلي مرقس: «لأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا بِالأَرْغِفَةِ إِذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ غَلِيظَةً.» (مرقس ٦:٥٢). لأنَّهم كانوا بعد ملتصقين بالمادة. لذلك أظهرَ الرَّب في تلك الحالة قدرته الذَّاتيّة:

فَقَالَ: «ائْتُونِي بِهَا إِلَى هُنَا». (مت ١٤: ١٨).

لأنَّه وإن كان الموضع قفرًا، إلَّا أنَّ الذي يُغذِّي المسكونة كلّها هو حاضر، وإن كانت الساعة متأخرة، إلَّا الذي يتكلَّم يتخطى كل زمن.

يقول الانجيلي يوحنا أيضًا: أنَّ الخبز كان شعيرًا. لم يَقُل ذلك عن طريق الصدفة، بل ليعلّمنا أن نهرب من تعظُّم المعيشة، لأنه هكذا كانت مائدة **الأنبياء**.

«فَأَمَرَ الْجُمُوعَ أَنْ يَتَّكِئُوا عَلَى الْعُشْبِ. ثُمَّ أَخَذَ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى الأَرْغِفَةَ لِلتَّلاَمِيذِ، وَالتَّلاَمِيذُ لِلْجُمُوعِ. فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا. ثُمَّ رَفَعُوا مَا فَضَلَ مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوءَةً. وَالآكِلُونَ كَانُوا نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُلٍ، مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ.» (مت ١٤: ١٩-٢١).

لماذا رفع نظره الى السماء وبارك؟ لأنه كان عليهم أن يؤمنوا بأنَّه **مُرسَلٌ من الآب ومساوٍ له**. لكن العلامات التي تشير إلى ذلك تتناقض ظاهريًّا. لقد أظهرَ مساواته للآب عندما كان يعمل كلّ شيء بسلطان، أمَّا مجيئه من الآب فلا يمكن أن يؤمنوا بذلك إنْ لم يفعل تلك الأشياء كلّها بتواضع ناسبًا إلى الآب ، ومنتظرًا معونته. ولذلك لم يظهر الجانب الأوّل دون الآخر، حتى يتبيّن الاثنان معًا. فكان يتمّم المعجزات تارّة بسلطانه وتارّة باستدعاء أبيه. وحتى لا يُعطَى الانطباع أنَّ الأمرين يتنافيان فيما بينهما، لذلك عند تتميمه للعجائب الصغيرة، كان يرفع نظره إلى السماء، وعند تتميمه العجائب الكبيرة كان يفعلها بملء سلطانه، حتى لا يُعْتَقَد أنَّ العجائب حتى الصغيرة لا تأتي من قدرته الخاصة. هو يتطلَّع إلى السماء فقط لكي يكرِّم أباه الذي ولده. عندما يغفر الخطايا، عندما يفتح الفردوس ويُدخِل اللص إليه، عندما ألغَى الناموس القديم بقدرة فائقة، عندما أقام أمواتًا كثيرين، عندما سَكَّنَ العاصفة في البحر، عندما انتهر افكار الناس الخفيّة، عندما وهب النور للعميان، هذه الأعمال كلّها من اختصاص الله وَحدَه دون غيره، وفي هذه الأعمال كلّها يبدو أنه لم يستدعِ أباه. لكن هنا عند تكثير الخبز استدعى معونة أبيه من جهة ليُظهر ما قلته سابقًا (أي أنه مُرسلٌ من الآب، يفعل كُلّ شيء ناسبًا اياه إلى أبيه)، ومن جهة ثانية لكي يُعلّمنا ألَّا نبدأ الطعام قبل أن نشكر ذاك الذي يعطينا الغذاء.

ولماذا لا يخلق خبزًا من العدم؟ لكي **يغلق أفواه مركيون ومانيخ** اللذين يبعدانه عن الخليقة، لكي يعلّمنا عن طريق العمل أنَّ الخبز والمنظورات كلّها صُنع يديه. كما يُريد أن يُظهر أيضًا أنَّه هو الذي يُعطي الأثمار والذي قال عند الخَلْق: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ.» (تك ١: ١١). وَقَالَ اللهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ». (تك ١: ٢٠). لأنَّ هذه المعجزة لم تكُن أقلّ شأنًا من تلك. كما أنَّ تلك خرجت من المياه رغم إبداعها من العدم، هكذا هنا أيضًا أبدَعَ خبزًا كثيرًا من خمسة أرغفة، وأبدَعَ سمكًا كثيرًا من سمكتين، وهذا لم يكن أقلّ شأنًا من إخراجه من الأرض أثمارًا ومن المياه زحّافات حيّة. هذا ممَّا يدلّ على سلطانه على الأرض وعلى المياه. كان يشفي المرضَى بصورة مستمرّة، لكنه في هذه الحالة بادَرَ إلى إحسان شامل حتى لا يبقى الناس مجرَّد شاهدين لِمَا يحصل للآخرين، بل ليتمتَّعوا هم أيضًا بإحساناته. ذاك الذي انتشل إعجاب اليهود في البريّة ﴿لأنه قيل آنذاك: «وهل يقدر أن يعطي خبزًا أو يهيّئ مائدةً لشعبه» (مز ٧٧: ٢٠) ﴾. لقد بَرْهَنَ هنا عن ذلك بطريقة فعليّة. لذلك قادهم إلى البريّة حيثُ لا وجود لمدينة قريبة، وهيَّأَ لهم كُل ما يحتاجونه للطعام. من هنا إنَّ الانجيلي قد حدَّدَ لا المكان فقط بل ومعه الساعة.

ونتعلَّم شيئًا آخَرَ وهو عدم اهتمام التلاميذ بالطعام. رغم عددهم لم يكن لديهم إلَّا خمسة أرغفة وسمكتان، ممَّا يدلّ على عدم اهتمامهم بالأشياء الجسديّة بل على اهتمامهم بالأمور الرّوحيّة. ومع هذا لم يتمسَّكوا بما كان لديهم بل أعطوه عند الطلب. من ذلك نتعلّم أنَّه حتى وإنْ مَلَكْنَا قليلًا، علينا أن نعطي ما عندنا للذين هم بحاجة. عندما طَلَبَ منهم أن يأتوا بالأرغفة الخمسة، لم يقولوا ماذا سنأكل؟ كيف نسدّ جوعنا؟ بل أطاعوا للحال. وإلى جانب كُلّ ذلك أنا أعتقد **(القديس يوحنا الذهبي الفم)** أنَّ الطعام المتوفِّر لديهم استُخدم لكي يقود التلاميذ إلى الإيمان، لأنَّ إيمانهم كان ضعيفًا. لذلك يرفع السيِّد نظره إلى السماء لأنَّهم قد رأوا نماذج كثيرة عن العجائب السابقة، أمَّا هذه فلم يروا مثلها قَطّ.

بعد أن أخذ الرَّب الخبزات، كسّرها إلى أجزاء واعطاها للجموع عن طريق التلاميذ، مُكرِّمًا إيَّاهم بهذه الطريقة. ولم يفعل ذلك فقط من أجل تكريمهم، بل لكي لا يظهروا فيما بعد عديمي الإيمان حتى لا ينسوا مثل هذا الحدث على مَرِّ الزمن، كونهم صاروا شهودًا بأيديهم للمعجزة. لذلك يدَع أوّلًا الجموع تجوع، ثمَّ يأتي التلاميذ ليسألوه، وبعدها عن طريقهم يُجلِس الجموع ويوزِّع لهم أجزاء الخبز والسمك. لأنه كان يريد أن يؤكِّد على اعتراف كُلّ واحد وعلى أعماله. لذلك أخذ الأرغفة من التلاميذ حتى يكون لهم أدلّة كثيرة تذكّرهم فيما بعد بالعجيبة. لأنه بالرغم من كُلّ ما جرى، نسوا الحدث، فكم بالأحرى سيكون إن لم يَقُم بكلّ هذه الإجراءات؟ يأمر الجموع أن يتّكئوا على العشب لكي يعلّمهم أن يواجهوا الحالات الصعبة بصبر. لأنّه كان يريد أن يغذي لا أجسادهم فقط بل أنفسهم.

من المكان الذي وُجِدوا فيه، من الاكتفاء بالخبز والسمك، من توزيع الطعام بالتساوي على الجميع من خلال كُلّ ذلك يعلّمهم على التواضع، على الإمساك، على المحبّة على إظهار اهتمام نفسه بالجميع وعلى اعتبار كُلّ شيء مشترك. «بعد أن كسَّرَ الرَّب الخبزات إلى أقسام أعطاها للتلاميذ والتلاميذ للجموع» كسَّر الخبزات الخمس فتكاثرت الأجزاء في أيدي التلاميذ. ولم يكتفِ بذلك العجب، بل جعل يفضل عن الخبز كِسَرٌ، لكي يُظهر أنَّ هذه الكِسَر ما هي إلَّا فضلات الخبزات الكثيرة حتى يتأكَّد الكلّ من المعجزة. لقد دعا الجموع تجوع حتى لا يعتقد أحد أنَّ العمل كان خيالًا. جعل يفضل اثني عشر قفةً حتى يتناول **يهوذا الإسخريوطي** واحدة منها. كان يمكن له أن يزيل جوع اليهود، لكن في هذه الحالة لن يعود التلاميذ يكتشفون قدرته، العمل الذي حصل أيضًا مع **إيليا** «إِنَّ كُوَّارَ الدَّقِيقِ لاَ يَفْرُغُ، وَكُوزَ الزَّيْتِ لاَ يَنْقُصُ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُعْطِي الرَّبُّ مَطَرًا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ» (سفر الملوك الأول ١٧: ١٤). لقد اندهش اليهود من الحدث إلى حدّ انهم أرادوا أن يعلنوه مَلِكًا، الشيء الذي لم يفعلوه في العجائب الأخرى.

من أقوال الآباء عن التجلّي الإلهي على طور ثابور

† **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** : إذ تحدّث الرَّب كثيرًا عن المخاطر التي تنتظره وآلامه وموته، وعن موت التلاميذ والتجارب القاسية التي تلحق بهم في الحياة... كما حدَّثهم عن أمور صالحة كثيرة يترجّونها، من أجلها يخسرون حياتهم لكي يجدوها، وإنه سيأتي في مجد أبيه ويهبنا الجزاء، لهذا أراد أن يُظهر لهم ما سيكون عليه مجده عند ظهوره، فيروا بأعينهم ويفهموا قدر ما يستطيعون، لهذا أظهر لهم ذلك في الحياة الحاضرة بالتجلّي.

† **القديس إفرام السوري** : القوم الذين قال عنهم أنهم لا يذوقون الموت حتى يعاينوا صورة مجيئه هم هؤلاء التلاميذ الثلاثة الذين أخذهم معه إلى الجبل، وأعلن لهم طريقة مجيئه في اليوم الأخير في مجد لاهوته وجسد تواضعه. وصعد بهم إلى جبل عالٍ لكي يُظهر لهم أمجاد لاهوته حتى لا يتعثّروا فيه عندما يرونه في الآلام التي قبلها بإرادته، والتي احتملها بالجسد من أجلنا. صَعِدَ بهم إلى جبل لكي يُظهر لهم ملكوته قبلما يشهدون آلامه وموته، فيرون مجده قبل عاره، حتى متى كان مسجونًا ومُدانًا من اليهود يفهمون أنه لم يُصْلَب بواسطتهم عن عجز، بل لأنه سُرّ بصلاحه أن يتألّم لأجل خلاص العالم، أصعدهم إلى جبل لكي يُظهِر لهم قبل قيامته **مجد لاهوته** حتى متى قام من الأموات يدركون أنه لم يتقبّل هذا المجد كجزاء لعمله كمن لم يكن له هذا المجد، وإنما له هذا المجد منذ الأزل **مع الآب والروح القدس**. وكما سبق فقال عندما ذهب إلى الآلام بإرادته: «وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ.» (يو١٧:٥).

أضاء وجهه ليس كما أضاء وجه موسى من الخارج، وإنما أشعَّ مجد لاهوته من ذاته ومع هذا ظلّت أمجاده فيه. من ذاته يشع نوره ويبقى نوره فيه. إنه لا يأتيه من الخارج ليزيِّنه ولا يقبله لاستخدامه إلى حين، إنه لم يكشف لهم أعماق لاهوته التي لا تُدرك، وإنما كشف لهم قدر ما تقدر أعين التلاميذ أن تتقبّل وتميِّز.

† **القديس أمبروسيوس أسقف ميلان**: هلمُّوا نصعد على الجبل ونتضرّع إلى كلمة الله ليكشف لنا عن ذاته في مجده وجماله. إذ نعاين مجد الله بوجوه مكشوفة نتغيَّر نحن أنفسنا إلى تلك الصورة عينها (٢كو٣:٨)، لما كان الصوت وُجد **يسوع وحده**، فبعد أن كانوا ثلاثة وُجد **يسوع وحده**. رأوا في البداية ثلاثة، أما في النهاية فرأوا واحدًا. بالإيمان الكامل يصير الكل واحدًا كما طلب يسوع من الآب: «لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا» (يو١٧:٢١). ليس **موسى وإيليا** وحدهما واحدًا في **المسيح**، وإنما نحن أيضًا واحد في جسد **المسيح** الواحد (رو١٢:٥)... ولعل هذا أيضًا يشير إلى أنَّ **الناموس (موسى) والأنبياء (إيليا)** مصدرهما **الكلمة**... لأن غاية الناموس هي **المسيح** للبرّ لكل من يؤمن (رو ١٠: ٤).

† **القدّيس يوحنا الدمشقي**: اليوم تُرى أمور غير منظورة للعيون البشرية، جسد أرضي عاكسٌ تألّقًا إلهيًّا، جسد مائت يدفق مجد الألوهة.

تجلّى أمامهم الذي هو على الدوام ممجّد وساطع ببريق الألوهة لأنّه إذ هو مولود من الآب من دون بداية، فهو يملك شعاع الألوهة الطبيعي الذي لا بدء له، وهو لم يكتسب في وقت لاحق الكيان ولا المجد.

فالمجد لم يأتِ على الجسد من خارج بل من الداخل، من ألوهيّة **كلمة الله** الفائقة الألوهية والمتّحدة بالجسد بحسب الأقنوم على نحو يتعذر وصفه.

† **القدّيس غريغوريوس بالاماس**: « هذا النور يسمو على سائر الكائنات. فكيف يكون ضياء الله مخلوقًا ؟ ».

† **العلّامة أوريجينوس**: أَن السيّد أعلن لاهوته للذين صعدوا على الجبل العالي، أَمَّا الذين هم في الاسفل فظهر لهم في شكل العبد. إنه يسأل من يشتاق أن يتعرّف على حقيقة السيّد، ويتجلّى قدامه أن يرتفع مع **يسوع** خلال الأناجيل المقدّسة على جبل الحكمة خلال العمل والقول.

العظة التاسعة عشرة، الأولى في الأسرار

لأبينا القديس كيرلُّس رئيس أساقفة أورشليم

في العُمَّادِ : المراسيم الافتتاحيّة

العظة الثانية والعشرون

الرابعة في الأسرار – في جسد المسيح ودمه

«إنِّي تلقيت من الرَّب ما بلّغته إليكم، وهو أنَّ الرَّب يسوع، في الليلة التي أُسلِمَ فيها، أخذَ خبزًا وشَكَرَ، ثمَّ كسره وقال: هذا هو جسدي، إنه من أجلكم. اعملوا هذا لذكري. وكذلك أخذ الكأس بعد العشاء وقال: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. كلّما شربتم فاعملوه ذِكرًا لي ...» (١كور ١١:٢٣-٢٩).

١) – نحصل على جسد المسيح ودمه في اشتراكنا بالأسرار الإلهيّة: هذا التعليم **للطوباوي بولس** يكفي هو أيضًا لإقناعكم بصحة الأسرار الإلهيّة التي وُجدتم جديرين بالاشتراك فيها، فصرتم هكذا جسدًا واحدًا ودمًا واحدًا مع المسيح. فقد أعلن **بولس** الآن: «إنَّ ربَّنا يسوع المسيح، في الليلة التي أُسْلِمَ بها، أخذ خبزًا وشَكَرَ، ثمَّ كسره وأعطاه لتلاميذه قائلًا: خذوا فكلوا، هذا هو جسدي. ثمَّ أخذَ الكأس وشكر وقال: خذوا واشربوا، هذا هو دمي» (١كور ١١:٢٣-٢٥). بما أنَّ يسوع صرَّحَ بذلك وقال عن الخبز (متى ٢٦:٢٦) «هذا هو جسدي»، فمن يتجاسر ويشكّ بعد ذلك؟ ولمَّا هو ذاته يؤكّد بكلام قاطع: «هذا هو دمي» (متى ٢٦:٢٨)، فمن الذي يُعارض ويقول إنه ليس دمه؟ .

٢) – تحويل الماء الى خمر مثال لتحويل الخمر الى دم المسيح: لقد سبَقَ له في **قانا الجليل** أن حوَّلَ الماءَ الى خمر بفعل إرادته (يو ٢:١-١١)؛ أفَلا يكون جديرًا بالتصديق عندما يُحوّل الخمر الى دمه؟ لقد قام بهذه الآية العجيبة عندما دُعِيَ الى عرس دنيوي، وعندما يهب لأصدقاء العريس (متى ٩:١٥) أن يتلذّذوا بجسده ودمه، أفلا نعترف به بالأكثر؟.

٣) – المناولة تُشركنا بالطبيعة الإلهيّة:

فلنشترك إذن، بكل ثقة، في **جسد المسيح ودمه**، إنَّ جسده يُعطَى لك تحت شكل الخبز، ودمه يُعطَى لكَ تحت شكل الخمر. وإذ أنتَ تشترك في **جسد المسيح ودمه**، تُصبح جسدًا واحدًا ودمًا واحدًا مع **المسيح**. وهكذا نُصبح نحن «حاملي المسيح»، بما ان جسده ودمه ينتشران في أعضائنا. وبهذه الكيفيّة نُصبح، على حدِّ تعبير **الطوباوي بطرس**، «شركاء الطبيعة الإلهيّة» (٢ بط ٤:).

٤) – لم يفهم اليهود كلام يسوع بمعناه الروحي:

وفيما كان **المسيح** يتحدَّث ذات يوم مع اليهود، قال: «اذا لم تأكلوا جسدي وتشربوا دمي، فلن تكون فيكم الحياة» (يو ٦:٥٣). أما اليهود الذين لم يفهموا كلام **يسوع** بمعناه الروحي، تشكّكوا وَوَلَّوا عنه، ظنًا منهم أنَّ المخلّص يدعوهم إلى أكل جسده البشري.

٥) – خبز التقدمة مثال الإفخارستيا:

وكان أيضًا في **العهد القديم** خبز التقدمة (أحبار ٢٤:٥-٩ ، متى ١٢:٤). وبما أنَّ هذا الخبز يعود إلى **العهد القديم** فقد بَطُلَ. على أن في العهد الجديد خبزًا سماويًا وكأس خلاص يُقدِّسان النفس والجسد. إذ كما أنَّ الخبز هو للجسد كذلك الكلمة هو للنفس.

٦) – احكموا بحسب الإيمان لا بحسب الحواسّ: فلا تنظر إذن الى الخبز والخمر كأنهما عنصران طبيعيان؛ إنما هما جسد ودم، كما أكَّدَ ذلك **المعلّم** نفسه. والحقّ يقال إنَّ الحواس توحِي إليكَ ذلك. فليُعطِكَ الإيمانُ الثقة التامة. لا تحكم في هذا المجال بحسب الذوق، ولكن امتلىء ثقة بحسب الإيمان، أنتَ الذي وُجِدَ أهلًا **لتناول جسد المسيح ودمه**.

٧) – داود نبيّ الإفخارستيا:

وقد بيّن لكَ **الطوباوي داود** قوّة هذا السرّ عندما قال: « تُهَيِّء أمامي مائدة تجاه مُضايقي» (مز ٢٢:٥). وإليكَ ما أراد أن يقول: قبل مجيئك **يا ربّ**، كان **الشياطين** قد أعدُّوا للبشر **مائدة ملوَّثة، نجسة** (ملاخي ١:٧)، **مليئة بالقوّة الشيطانية**. ولكن، بعد مجيئك، **أيُّها السَّيِّد**، «هيأتَ أمامي مائدة». ماذا هو يعني غير المائدة الروحيّة السرّية التي أعدَّها **الله** لنا لمواجهة **العدو ومقاومة الشياطين**؟ أمَّا هذه المائدة فتشركنا مع **الله**. «مسحتَ رأسي بالدهن» (مز ٢٢:٥). لقد مسَحَ رأسك بزيت على جبينك بسبب الختم الذي تسلّمته من **الله** لتُصبح سمةَ الختم وشخصًا مكرّسًا **لله**. «وكأسك التي أسكرتني كم هي عذبة»! (مز ٢٢:٥). هذه الكأس المذكورة هي التي أخذها **يسوع** في يديه وشكر وقال: «هذا هو دمي المُراق من أجل جماعة كثيرة لغفران الخطايا» (متى ٢٦:٢٨).

التوبة في الصلاة

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** إنه إذا أخطأنا وكُنَّا مستعدين أن نكفَّ عن الخطيئة، فسنكون أهلًا لرحمة الله (١). وفي مزمور ٦:٣ يصلِّي **داود النبيّ** قائلًا: «ارحمني، يا رب، فإني ضعيف» (الترجمة السبعينية) (٢). ويقول **الذهبي الفم** إنَّ **داود** يُعطينا هنا أحد مبررات حصولنا على مغفرة خطايانا، وهو الضعف الذي يصيبنا من جراء التجارب.

وحينما يستطرد **داود** فيقول: «لقد أُنهِكتُ بسبب أعدائي»، فإن هذا يُعتبَر – في تفسير الذهبي الفم – إشارة إلى أنه يعرف أن الضيقة التي ينوء بها هي وسيلة فعَّالة لبلوغ رحمة الله ولجعله مُحَبَّبًا لدى الله. ولهذا فإن دموع التوبة التي يذرفها **داود** جديرة بانتباهنا: «بدموعي أغسل فراشي» (مز ٦:٧) (٣). يُصرُّ **الذهبي الفم** على أن الاعتراف الأمين بخطايانا جدير باستدرار رحمة الله علينا (٤).

الصلاة أثناء أزمنة الضيق:

يتكلَّم **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن الضيقات كوسيلة تجعل الذين يتألمون بها في حالٍ أحسن وأكثر حكمة (٥). فالنفس المنغمسة في وحل الشرور تلتفت حينئذ إلى الله. وهذا التحوُّل هو ثمرة الضيقة، فهي تشدّ النفس وتخرجها من سباتها، وتجعلها تتوسل طالبة العَوْن من أعلى وتجرِّدها من كل رجاء في هذه الحياة (٦).

يقول **الذهبي الفم** إن صلاة **داود**: «خلِّصني يا رب من كل الذين يضطهدونني، وأنقذني» (مز ٧:٢)، هي وسيلة أخرى بها يفلت من الذين يحزنونه، لأنه يستخدم لغة معتدلة ليتكلَّم عن أعدائه دون أن يُعدِّد جرائمهم ضده (٧). فقد رأى ابنه (**أبشالوم**) وقد صار **فريسة للشيطان** الذي افترسه (انظر ٢صم١٤)، فيشرح **الذهبي الفم** أنه توسَّل إلى الله لينقذه من مثل سوء المصير هذا (٨). ويشير **القديس يوحنا الذهبي الفم** كثيرًا إلى كيف يجب أن يكون اتجاهنا نحو أعدائنا، وسنعود إلى ذلك فيما بعد تحت عنوان: **تطويع حياتنا لشريعة الله.**

ومن الطبيعي أن يتجه الإنسان في أزمنة الضيق نحو الله بالصلاة، لكن **الذهبي الفم** يؤكِّد على أنه يجب أن نفعل ذلك باتضاع، كما فعل **داود** حينما قال: «ترآءَف عليَّ، واستمع صلاتي.» (مز ٤:٢)

والتواضع، كما يقول **الذهبي الفم**، هو أحد أركان الفضيلة (٩)، وهو ضروري لِمَن يصلِّي ليستحق الرحمة. وحينما يصرخ **داود** في المزمور الثاني عشر : «أما أنا فعلى رحمتك توكَّلتُ» (مز١٢:٦)، فإن **داود** – كما يشرح **الذهبي الفم** – بالرغم من استطاعته أن يستدعي إلى ذاكرته كل أعماله الصالحة لتشفع له في استجابة الله صلواته، إلَّا أنه في اتضاعه يحصر نفسه في استدعاء رحمة الله (١٠). ويضيف أن فضيلة الاتضاع هي التي ألهمت **داود** ليقول: «القلب المنكسر والمتضع لا يرذله الله» (مز ٥٠:١٩) (١١). وفي مزمور ١٤٣:٢ يدعو **داود** الله بأنه: «رحمتي، وملجأي، ومعيني ومنقذي». ويقول **الذهبي الفم** إن الاتضاع يظهر في تذكُّر أنه من الله وحده يجب أن نطلب الرحمة (١٢).

ويشير **الذهبي الفم** في معرض شرحه لمزمور ٩ إلى أنَّ الكثيرين من ذوي السعة والغِنَى يصيرون متكاسلين ومهملين في واجباتهم تجاه الله وبني جنسهم من البشر، ثم إذا أصابتهم المحن يسقطون في اليأس. ولكن ذلك لم يحدث مع **داود**، كما يقرِّر **الذهبي الفم**، فبالرغم من إقامته في قصره الملكي، إلَّا أنه كان دائم الالتزام نحو الفقير والمسكين (١٣). فالغِنَى قاده إلى أن يعلن شكره لله ، والضيقات كانت كفيلة بأن تلهمه اللجوء إلى الله، هكذا يقول **الذهبي الفم** (١٤)، فلا شأن للظروف؛ إذ الصلاة هي الردُّ الأول **لداود** عليها. لذلك يعلن **الذهبي الفم**: «إليكم داود معلِّمًا» (١٥).

إن **الذهبي الفم** يعتبر **داود** مُعلِّمًا لنا، لأنه يُقدِّم نفسه قدوة بحياته الفاضلة كما بالطريقة التي يُصَلِّي بها في المزامير؛ وإذ يتخذه **الذهبي الفم** قدوة يحثُّنا: «فلنؤدِّ كل ما علينا أن نعمله، وحينئذ سنستحق كل ثناء» (١٦). إن هناك ثمة أهمية قصوى على ما يمكننا أن نفعله، ليس فقط من جهة أسلوب حياتنا التي نحياها، بل وأيضًا باتجاهنا الرُّوحي أثناء الصلاة.

تطويع حياتنا لمشيئة الله، أن نؤدِّي ما علينا أن نعمله:

يتساءل **القديس يوحنا الذهبي الفم**: «ما الذي علينا أن نعمله»؟ ويردُّ في الحال بالمثل الآتي: «فإنْ أبغضك أحد، أحببه واصنع الخير نحوه. وإن شتمك واستهزأ بك، بارك عليه وامدحه» (١٧). ويُقدِّم

أمثلة أخرى فيقول إنه يجب أن نهرب من **الكراهيَّة والغضب والانتقام** (١٨)، ونتحمل الشتائم برأس مرفوع، محوِّلين الخد الآخر إذا لُطمنا (١٩). فكما أنه قيل عن **الله** أنه كان له أعداء، لكنه لم يبغضهم بل أبغض أعمالهم الشريرة؛ هكذا فالإنسان البارُّ له أعداؤه، ولكن دون أن يعمل على الثأر منهم أو ردّ الإساءة، بل يبغض شرورهم (٢٠).

ويُذكِّرنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** بأن **القديس بولس** يحثُّ المؤمنين على أن يُظلَموا أفضل من أن يَظلِموا، يُضرَبوا أفضل من أن يَضرِبوا (كما ورد في أقوال الآباء النسَّاك: «كُنْ مظلومًا لا ظالمًا»). هذا إظهار لقوة عُظمى – كما يقول **الذهبي الفم** – وهذا ما يغرس فينا الصبر الذي يجعل النفس قوية وأعلى من أي قلق واضطراب (٢١).

وفي مزمور ٥:٥: «تبغض كل فاعلي الإثم، وتُهلك كل الناطقين بالكذب. رجل الدماء والغاش يُرذله الرَّب»، يقول **الذهبي الفم**، إن **النبي** يُعلِّمنا درسًا عن ضرورة أن تطيع حياتنا لمشيئة **الرَّب** لكي نصير مستحقين للاقتراب منه (٢٢). رجال الإثم يُبرِّرون طردهم مخافة **الله** من قلوبهم، وهكذا كما يقول **الذهبي الفم**، يُهيِّئون الفرصة لنفوسهم ليرجعوا مرة أخرى إلى **نفس الخطايا**. وهذا هو السبب الذي من أجله كان **داود** يوصي دائمًا بأحد أفعال الفضيلة الأساسية أن نتفادَى التورُّط مع هؤلاء كما يقول في المزمور ١٤٠:٤: «لا تُمِل قلبي إلى كلام الشر، ليتعلَّل بعلل الخطايا. مع الناس العاملي الإثم». ويعتقد **الذهبي الفم** بأنَّ هذا ما دفع **داود** أن يبدأ مزاميره بهذه الكلمات: «طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفَرة، وفي طريق الخطأة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس.» (مز١:١) (٢٣).

فلا يكفي أن نصلِّي حتى يسمعنا **الله**، بل يجب – كما يقول **الذهبي الفم** – أن نتعاهد مع أنفسنا كما فعل **داود** وهو يصلِّي: « علِّمني يا رب مشيئتك (أن أعمل هواك)، لأنك أنت هو إلهي... لأنِّي أنا عبدُك» (مز ١٤٢:١٠-١٢). ولذلك يحثنا **الذهبي الفم** ليس فقط أن نصلي، بل بأن نُقرِن صلواتنا بحياة مقدسة (٢٤). وفي نفس الوقت فإن مثل هذه الحياة الصالحة تمجِّد **الله** (مت ٥:١٦)، أمَّا **الحياة الشريرة** فهي التجديف على **الله**، كما قال **الله** للإسرائيليين على فم **النبي إشعياء**: «بسببكم اسمي يُجدَّف عليه بين الأمم» (إش ٥٢:٥) (٢٥). لذلك يحضنا أن ننتبه لكلمات **المسيح**: «فليُضئ نوركم هكذا قدَّام الناس، لكي يرَوْا أعمالكم الحسنة ويُمجِّدوا أباكم الذي في السموات» (مت ٥:١٦)، ثم يضيف **الذهبي الفم**: « فَلْتَسْبِقْ حياتُنا أفواهَنا» (٢٦)!

ولأن **القديس يوحنا الذهبي الفم** يعتقد بأنَّ الصلاة الحارَّة تُليِّن القلب وتُحرِّكه بقوة أكثر مما تفعله النار، فهو يُحذِّرنا أنَّنا حينما نصلي لا ندبِّر لأنفسنا أن ننال ما نصلِّي من أجله، ولكن أن نجعل صلاتنا تُجدِّد نفوسنا إلى الأفضل (٢٧). وحينما يتكلَّم عن مزمور ١٢٠ يحضنا هكذا: « فلنحترس من أن نظل في الإهمال والتراخي. فلنعمل بجدٍّ من أجل خلاصنا. أعطِ الله الفرصة والدافع ليُكافئك. افعل كل ما عليك أن تعمله، والله يكمل الباقي.» (٢٨).

عن مقال:

David's Prayer in Saint John Chrysostom's Explanations of the Psalms, by: Eleni C. Simmons, The Greek Orthodox Theological Review, Vol 38, Nos. 1-4, 1993, pp. 351-367.

(1) Explanation of Psalm 6, PG 55,74.
(2) يُلاحَظ أن كل الاقتباسات من العهد القديم مأخوذة من الترجمة السبعينية، وكذلك أرقام المزامير والآيات.
(3) Ibid.
(4) Explanation of Psalm 140, PG 55,438.
(5) Explanation of Psalm 117, PG 55,330.
(6) Explanation of Psalm 120, PG 55,344.
(7) Explanation of Psalm 7, PG 55,84.
(8) Ibid.
(9) Explanation of Psalm 4, PG 55,44.
(10) Explanation of Psalm 12, PG 55,152.
(11) Explanation of Psalm 142, PG 55,450.
(12) Explanation of Psalm 143, PG 55,458.
(13) Explanation of Psalm 9, PG 55,128.
(14) Explanation of Psalm 141, PG 55,445.
(15) Explanation of Psalm 12, PG 55,153.
(16) Explanation of Psalm 7, PG 55,88.
(17) Explanation of Psalm 7, PG 55,88.
(18) Explanation of Psalm 7, PG 55,88.
(19) Explanation of Psalm 7, PG 55,89.
(20) Explanation of Psalm 7, PG 55,90.
(21) Explanation of Psalm 7, PG 55,103.
(22) Explanation of Psalm 5, PG 55,95.
(23) Explanation of Psalm 140, PG 55,438.
(24) Explanation of Psalm 142, PG 55,456.
(25) Explanation of Psalm 113, PG 55,309.
(26) Explanation of Psalm 112, PG 55,300.
(27) Explanation of Psalm 129, PG 55,374.
(28) Explanation of Psalm 120, PG 55,345.

«لاَ يَتَبَاطَأُ الرَّبُّ عَنْ وَعْدِهِ كَمَا يَحْسِبُ قَوْمٌ التَّبَاطُؤَ، لكِنَّهُ يَتَأَنَّى عَلَيْنَا، وَهُوَ لاَ يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أُنَاسٌ، بَلْ أَنْ يُقْبِلَ الْجَمِيعُ إِلَى التَّوْبَةِ.» (٢بط٣:٩)، وأنه يصير «فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ» (لو١٥:٧). فالابن الشاطر، الذي هو نموذج للسَّاقطين بعد المعمودية، « بعد أن ذهب إلى أرضٍ غريبة، وأدرك بالفعل جسامة شرِّ سقوطه من بيت أبيه، عاد إليه. أمَّا أبوه فلم يحقد عليه بل قبله بأيدٍ مفتوحة ... لأنه كان أبًا لا حاكمًا. ولهذا أقام احتفالًا عظيمًا. ولم تكن هذه المكافأة جزاء للشَّر والخطيئة، بل مكافأة للعودة والتحوُّل.

(القديس يوحنا الذهبي الفم، مقالة أولى في التوبة ٤)

✝ « أنا قلتُ إنكم آلهة وبنو العليِّ كلكم.» (مز ٨١: ٦).

موهبة التبنِّي لله، وكيف أن الصلاة والتوبة تُرجعاننا إلى هذه البنوَّة الغالية.

نعمة موهبة التبنِّي لله:

يقول القديس غريغوريوس النيصصيّ في شرحه للصلاة الربانية:

﴿الرَّب يقول لتلاميذه: «مَتَى صَلَّيْتُمْ فَقُولُوا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ»... أيُّ روح يجب أن تكون للإنسان ليقول هذه الكلمة («أبانا»)؟ أية ثقة، وأية نقاوة لضميره؟! فلنفرض أن الإنسان يحاول أن يفهم الله بقدر المستطاع من الأسماء التي يُدعَى بها وينقاد بذلك إلى فهم المجد الذي لا يوصف، فهو سيتعلَّم أنَّ الطبيعة الإلهية مهما كانت فهي في ذاتها خيرٌ مُطلق وقداسة وفرح، وقوة مجد وطهارة وأبدية مطلقة دائمة لا تتغيَّر. هذه الصفات – وأي صفات أخرى يمكن أن تخطر على البال ويمكن للإنسان أن يعرف منها الطبيعة الإلهية سواء من الأسفار المقدسة أو من تأملاته – هل يمكنها أن تجعله يتبصَّر ويتجاسر على أن ينطق داعيًا هذا الكائن الأعظم بكلمة «أبانا»؟

إن كان له أي إحساس فلن يجرؤ على أن يدعو الله أبًا طالما أنه لا يرى في ذاته نفس الأمور التي يراها الله؛ لأنه يستحيل من الناحية الطبيعية أنَّ الصالح في جوهره يكون أبًا لمشيئة شريرة، والقدوس أن يكون أبًا لذي الحياة النجسة، ولا يمكن لمن لا يتغيَّر أن يكون أبًا لمن يتقلَّب من جانب إلى آخر، ولا لأبي الحياة أن يكون له ابن يخضع للخطية حتى الموت... وباختصار، فإن ذاك الذي هو الصلاح النقيّ لا يمكن أن يكون أبًا للمنهمكين بكُلِّيتهم في الشر. فإذا كان الإنسان عندما يمتحن نفسه يجد أنه لا يزال يحتاج إلى أن يتطهَّر لأن ضميره ممتلئ بوصمات شريرة، فهو لا يستطيع أن يُقحم نفسه بين «أَهْلِ بَيْتِ اللهِ» (أف ٢: ١٩) إلى أن يتنقَّى من جميع الشرور...﴾

الصلاة والتوبة يرجعاننا إلى البنوَّة:

ويستطرد القديس غريغوريوس النيصصيّ قائلًا:

﴿فإذا كان الرَّب يُعلِّمنا في الصلاة الربانية التي سلَّمها لنا أن ندعوه أبًا، فيبدو لي أنه لا يفعل سوى أنه يضع أمامنا أسمى نوع من الحياة كناموس لنا؛ لأنَّ «الحقّ» لا يُعلِّمنا أن نخدع نفوسنا ونصفها بما ليس هو حالنا وأن نستعمل اسمًا ليس لنا حقٌّ فيه. ولكننا إذا دعونا ذاك الذي هو غير فاسد وبارٌّ وصالح أبًا لنا فعلينا أن نُثبت بحياتنا أن هذه القرابة حقيقية. أتُرى كم نحتاج إلى استعداد وأي نوع من الحياة علينا أن نعيش؟ وأية حرارة يجب أن تكون عليها غيرتنا حتى تحقِّق ضمائرنا نقاوةً تُعطينا شجاعةً أن نقول لله «يا أبانا»؟...

الإنسان ينبغي أن يكتسب رضى الله بحياته الفاضلة، ولكن يبدو لي أنَّ كلمات الصلاة تشير إلى معنى أعمق، لأنها تُذكِّرنا بوطننا الأصلي الذي سقطنا منه وحقنا السامي الذي فقدناه. ففي قصة الابن الضال الذي ترك بيت أبيه وذهب بعيدًا ليعيش مثل الخنزير، نجد أن الكلمة الإلهي يُظهِر بؤس الإنسان في مَثَل يحكي لنا عن رحيله وحياته الخليعة، وأنه لا يُعيده إلى حياته السابقة حتى يصير على درايةٍ واعية بسوء حالته الحاضرة ويرجع إلى داخل نفسه مردِّدًا كلمات التوبة.﴾

التوبة وقبول الله للخاطئ الراجع، واختبار محبة الله لنا كأب:

ثم يُكمِل القديس غريغوريوس النيصصيّ قائلًا: ﴿ وتتفق كلمات التوبة هذه مع كلمات الصلاة الربانية، لأنه (أي الابن الضال) قال: «يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ» (لو ١٥: ٢١). إنه ما كان ليُضيف إلى اعترافه أنه أخطأ إلى السماء لو لم يكن قد اقتنع أنَّ الوطن الذي تركه عندما أخطأ كان هو السماء. ولذلك فقد منحه هذا الاعتراف عبورًا سهلًا إلى الأب الذي أسرع نحوه واحتضنه وَقَبَّلَهُ...

وعلى ذلك فرجوع الشاب إلى بيت أبيه أعطى له فرصة لاختبار عطف أبيه، لأنَّ هذا البيت الأبوي هو السماء التي أخطأ إليها كما

قال لأبيه. وبنفس الطريقة يبدو لي أنه إذا كان **الرَّب** يُعلِّمنا أن ندعو الآب الذي في السماء فهو يقصد أن يُذكِّرنا بوطننا الأُم الجميل، وهو بذلك إذ يضع في أذهاننا رغبةً أقوى لتلك الصالحات فهو يضعنا على الطريق الذي يقودنا عائدًا بنا إلى وطننا الأصلي.

وإذا كان «الله في السماء» حسب الكتاب (مز ١١٣: ٣)، وأنت كما يقول **النبي**: «تقترب إلى الله» (مز ٧٢: ٢٨)، فيتبع ذلك أنك لابُدَّ أن تكون حيث يوجد **الله** لأنك تكون متحدًا به. وطالما أنه أوصى أن تدعو **الله** في الصلاة أبًا، فهو يخبرك ألَّا تفعل أقل من أن تصير مثل أبيك السماوي بحياةٍ جديدةٍ **بالله** مثلما يأمرنا بوضوح أكثر قائلًا: «فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ.» (مت ٥: ٤٨).

فإن كنا قد فهمنا الآن معنى هذه الصلاة فربما بذلك يكون الوقت قد حان لنُعدَّ نفوسنا لكي ننطق بدالة الثقة بتلك الكلمات: «أبانا الذي في السموات». لأنه كما توجد صفات واضحة لمن يكون بشبه **الله**، تلك التي بها يصير الإنسان ابنًا **لله** – لأنه يقول: «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ» (يو ١: ١٢)؛ فالذي يقبل الصلاح الكامل يقبل **الله** – هكذا أيضًا توجد علامات أكيدة تخص الشخصيّة الشريرة التي لا يمكنها أن تكون حاملةً لابن **الله**، لأنها مطبوعة على صورة الطبيعة العكسية المضادَّة (**أي الشيطان**). لذلك، فقبل أن نقترب من **الله** يجب أن نمتحن أنفسنا إن كان لنا في أنفسنا شيء جدير بقرابتنا **لله**، وهكذا تكون لنا دالة أن نستعمل كلمة «أبانا»﴾.

التمتُّع بالبنوَّة والتطلُّع إلى المدينة السماوية:

ثم يستفيض **القديس غريغوريوس النيصصيّ** في شرحه لسمُوِّ عطية التبنِّي قائلًا:

﴿ فالذي يعيش بطريقة جديرة بالسُّمُوِّ الإلهي له الحقّ في أن يتطلَّع إلى المدينة السماوية داعيًا مَلِك السماء أبًا له والسعادة السماوية وطنه الأُم، لأن الغرض من هذه المشورة هو أن يفكِّر الإنسان في الأمور التي فوق حيث يوجد **الله**. هناك ينبغي أن توضع أساسات البيت، هناك تُكنَز الكنوز والقلب يثبت «لأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا.» (مت ٦: ٢١). فعلينا أن نداوم على النظر إلى جمال الآب ونطابق جمال نفوسنا على جماله.

إن كنتَ هكذا فيمكنك أن تُخاطب **الله** بدالة باسمٍ مألوف وتدعو ربّ الكل أبًا لك. إنه سينظر إليك بعينَيْ أب. إنه سيُلبسك الرداء الإلهي ويُزيِّنك بخاتم. إنه سيجعل في رجليك حذاء الإنجيل لأجل رحيلك إلى فوق، ويُهيِّئك لوطنك السماوي في المسيح يسوع ربنا الذي له المجد والقوة إلى أبد الآبدين. آمين.﴾

في الإيمان – للقديس يوحنا الذهبي الفم

كما أن الحيَّة تتخلَّى عن جسمها كلّه لتحفظ رأسها، كذلك تخلَّوا أنتم أيضًا عن مقتنياتكم، وشهواتكم وعن الرذائل في حياتكم، لتحفظوا ايمانكم نقيًّا. الإيمان هو الرأس، هو الجذور. عندما تكونون قد تخلَّيتم عن كل شيء عندها سوف يُزهر الكُلّ من جديد بفيضٍ وفير، وتستعيدون كل شيء ببهاء أكبر» . (عظة في إنجيل متى).

لنحافظ على نار الرُّوح بِبَذْلٍ غير محدود، ولنحرص ألَّا نغرق من جري ايماننا. لأنَّ الإيمان يحتاج الى معونة الرُّوح وسكناه، ليبقَى غير متزعزع. ومعونة الرُّوح كامنة ومضمونة في حياة نقيّة، في سلوكٍ بلا عيب.

إن كُنَّا نبتغي إيمانًا مع جذور عميقة، فلنسلك حياةً طاهرة تجعلنا نتمسّك بالرُّوح القدس الذي سوف يحافظ على شعلة الإيمان. من المستحيل أن نتقدّم في إيماننا بدون حياة نقية... ما يشكّله الغذاء للجسم تشكله الأعمال للإيمان.

الإيمان بدون أعمال ميت (يعقوب ٢: ٢٠) (عظة في الإيمان ١: ٩–١٠).

عندما يلتهب الإنسان محبةً بالله، لا يعود يهتم بالأمور التي تجذب عيون الجسد. يكتسب أعيُنًا أُخرى، أعين الإيمان. هكذا يتأمل بصورة مستمرة بالأشياء السَّامية ويركّز فكره عليها. يمشي على الأرض ويتصرف في كل شيء وكأن موطنه في السماوات. مثل هذا الإنسان لا تعود تجذبه الأشياء الباهرة ولا حوادث الحياة الحاضرة. يتخطَّى كُلّ شيء متطلعًا إلى وطنه الحقيقي... إنْ كُنَّا في هذه الحالة، كُلّ شيء في هذه الحياة مهما صَعُبَ يُزدرى به. لا نعود نخشى السَّيف، الضربات، الجلَّادين. لأنَّ النفس تكون قد خطفتها الأمور الأبديَّة. أرجوكم امتلكوا محبّة خالصة حارة لله، ولنُذِبْ فيه أفكارنا وقلوبنا. (عظة تكوين ٢٨).

في وسط المدن حيث يسكن، كان **بولس** بعيدًا عن أمور الأرض بقدر ما نحن بعيدون عن الجثث البالية. عندما كان يقول «صُلِبَ الْعَالَمُ لِي» (غل ٦: ١٤)، كان يتكلّم عن مثل هذا اللَّا إحساس... يتابع ويقول «وَأَنَا صُلِبتُ لِلْعَالَمِ» (غلاطية ٦: ١٤).

هكذا يجب علينا أن نُحبّ **المسيح**. أن نتجرّد من الأمور الأرضية. كانت نفوس الأنبياء القدّيسين مملوءة بِمِثْلِ هذه الحالة إلى أن اكتسبوا أعْيُنًا جديدة. كانوا متجرّدين عن الأمور الحاضرة، وهذا نتيجة جهادهم وغيرتهم. بعدها تفتّحت عيونهم لنورٍ جديد، فأخذوا يتأملون في الآخرة وهذا من فعل النعمة الإلهية...

الإنسان الحيواني لا يُدرك الأشياء التي تأتي من روح الله. لنسعَ وراء الهدوء والوحدة، لا العزلة من الأماكن، بل الوحدة في القلب، وحدته مع **الله**، وليكن همّنا الأوَّل أنْ نُرشد أنفسنا إلى الأماكن المقفرة جدًا. (حديث عن التخشّع).

قراءة الإنجيل المقدس، وعظة القداس الإلهي وارتباطهما بالإفخارستيَّا

عظة القدَّاس الإلهي ودورها الريادي

ارتباط قراءات الإنجيل والعظة بالإفخارستيا:

كانت عظة الرَّب يسوع المسيح في مجمع الناصرة – التي وردت في **إنجيل القديس لوقا** (لو ٤: ١٦-٢٢) – هي التي أعطت المفتاح لِمَا كان **آباؤنا في القرون الأولى يفعلونه في كنائسهم**. ففي أثناء الليتورجية الإلهية كانوا يعظون على الأسفار الإلهية، هذه العظات التي تطوَّرت حتى ازدهرت في أيام **العلاَّمة أوريجانوس**.

ويُعتبر قدَّاس الموعوظين أنه القسم الكرازي أو التعليمي من القداس، أما قداس المؤمنين فهو القسم الذي تتم فيه الشركة الإفخارستية. إلَّا أنَّ **الرَّب** يكون حاضرًا في كُلٍّ منهما جاعلًا منهما وحدةً واحدة، لأن لكل منهما طقسًا يجعلنا نتقابل مع ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، ويمكن إدراك ملء العبادة المسيحية عندما نفهم أنَّ المسيح الكلمة سواء المنطوقة أو في ظهوره السرِّي في الجسد والدم موجود كل منهما في الآخر، وهكذا يتمِّم كل منهما وظيفته السرائرية.

وفي **التقليد الأرثوذكسي** نجد أن خدمة كل من ليتورجية الكلمة للموعوظين وليتورجية الأسرار للمؤمنين، إنما هي طقس شامل يشير إلى وحدتهما من الناحية الجوهرية. فليتورجية الكلمة يُقصَد بها تقديم فصول القراءات الإنجيلية لشعب الكنيسة، وليتورجية المؤمنين لإتمام ذبيحة الإفخارستيا. ولكي تؤدِّي الليتورجية الإلهية الغرض منها، فمن الضروري عدم الفصل بين الكلمة «المسيح» وسرّ جسده ودمه. **وعظة القداس** – لو أُلقيت على أصولها – يمكنها أن تُبرز الوحدانية بين الليتورجيتين، فهي قسم حيوي من القداس، وتُعتبر كأنها عمل سرائري. وكونها موضوعة بين قسمَي القداس، فهي تربط الكرازة الإنجيلية بالإفخارستية الإنجيلية، وموضوع كل منهما واحد هو **شخص المسيح**. ولذلك يجب أن ندرس الأُسس التي ينبغي أن تُبنَى عليها **عظة القداس** لكي تؤدِّي وظيفتها والغرض منها.

إن مجال الليتورجية الذي يدخله شعب الكنيسة، يدعوهم إلى المشاركة مباشرةً في شخص الله الكلمة، إذ يسمعون كلمة الله يُكرَز بها في اجتماعهم، ثم يتناولونها بشركتهم في جسد المسيح ودمه. وإذ يكون المسيح المصلوب مرفوعًا أمام عيونهم (غل٣: ١)، تدعو الكنيسة الذين يريدون أن يتبعوه أن يُشاركوا في سِرِّ الإفخارستيا؛ فهي تحتذبهم إلى الإحساس بحضور الرَّب المتجسِّد الذي يكرز به الرسل في قراءات الإنجيل، وتحثهم على اتخاذ موقف في حياتهم على أساس كلمة الله. إنها تدعو المُصلِّي أن يأخذ كلام الإنجيل بجدِّيَّة: إنَّ شخص المسيح وآلامه وقيامته التي قُدِّمت لأجله هو شخصيًا، إنما هي رسالة الإنجيل الذي يُتلَى في قداس الموعوظين.

وظيفة الطقس الليتورجي هي أن تجعل مسيح الإنجيل حاضرًا وسط المجتمعين. والإيمان بربوبية المسيح على القلوب، إنما هو هدف كل كرازة مسيحية وكل روحانية وطقوس ليتورجية. وهذا ما يتفق مع قول **القديس باسيليوس**: « ففيما نحن أيضًا نصنع ذكر آلامه... نقرِّب لك قرابينك...» (القداس الإلهي).

وتصوِّر **الكنيسة المسيح** ليس باعتبار أنه فقط هو الذي مات لأجلنا في الماضي، بل باعتبار أنه هو الرَّب في مجيئه الآتي. فقواعد اللغة في هذه الصلاة المذكورة أعلاه تجعل من الواضح أن هذا المجيء الثاني قد تمَّ بالرَّجاء. فمجيء المسيح إنما هو حقيقة حاضرة، ونوجد نحن خاضعين لدينونة هذا المجيء الآتي منذ الآن. فإن كانت الليتورجية تكرز بإنجيل المسيح بكل ملئه، فهي ينبغي أن تستعلن المسيح وكلمته لشعب الكنيسة، وتُقدِّم لهم الأساليب التي تشير إلى ملكوت الله باعتبار أنها هي التي يعيشون بها حياتهم.

البنية الأساسية لشعب الله:

قام **شعب إسرائيل القديم** حينما دُعِيَ للخروج **من عبودية مصر**، وتثبَّت عهد الله معه عند سفح جبل سيناء عندما تسلم كلمة الله. إنَّ الله لم يحرِّر هذا الشعب فحسب، بل إنَّه وضع له كيانه عندما منحه كلمته. وهكذا خَتَمَهُ بجعلهِ شعبًا خاصًا بيهوه دون أي إله آخر، وهذا هو **عهد ناموس موسى: العهد القديم**، أي أنه خُتِمَ بكلمة الله. هكذا أيضًا في ليتورجية العهد الجديد، فإن دعوة الله لعبادته

وكلمته التي يُكرَز بها في القراءات الإنجيلية وعظة القداس والآيات الكتابية المرتبطة بنص الصلوات الليتورجية؛ كل هذا هو الذي أنشأ البُنية الأساسية لجماعة العابدين وعلاقتهم بالله. وقد خُتمت هذه العلاقة بسرِّ الإفخارستيا الذي هو العلامة المحسوسة الدالة على عضوية شعب الله في جسد الرَّب.

شعب الكنيسة إنما يجتمع حول التعاليم الرسولية التي تبقى هي المعيار الرئيسي لكيانه. والتجمُّع الإفخارستي للمؤمنين هو الذي يختم على كيان كل معمَّد، إمَّا بالكلمة المنطوقة، أو بالجسد المكسور اللذين للمسيح الواحد الذي هو القائد الوحيد للكنيسة ومصدر حياة أعضائها. ولنا مثال على ارتباط عظة القداس بالسرّ المقدس في سفر الأعمال القائل: « وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزًا، خَاطَبَهُمْ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْغَدِ، وَأَطَالَ الْكَلاَمَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ.» (أع ٢٠: ٧).

لقد قَبِلَ إسرائيل في القديم خلاص الله لهم من **عبودية مصر**، كما قبلوا الناموس الذي جعلهم تحت سلطان الله، ولكنهم عندما تعدَّوا هذا الناموس حلَّ عليهم غضبه ودينونته، والذين دنَّسوا عهد الله استُؤصلوا من بين الجماعة. هكذا أيضًا في كُلِّ قداس، فإن اشتراك المسيحيين في سرِّ الإفخارستيا يضعهم تحت سلطان كلمة الله، وبالتالي يُقدَّم لهم الخلاص وينذرهم بحكم دينونة الله. فعندما نقترب من جسد الرَّب ودمه، نكون قد سمعنا كلمة الله، ونكون قد قرَّرنا موقفنا إن كنا نسعى إلى دوام عضويتنا كرعية مع القديسين وأهل بيت الله.

قال الرَّب لتلميذيه: «أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟»؟ فإذا كانت إجابتنا: «نستطيع» (مت ٢٠: ٢٢)، واشْتَرَكنَا في الإفخارستيا؛ حينئذ نكون مسئولين أمام الله عن أفعالنا إن فشلنا في تنفيذ وصاياه، لأننا سلَّمنا أنفسنا لتحقيق كلمة الله في حياتنا.

لقد وُضعت **عظة القداس** بين قراءات الإنجيل وتقديس السِّرّ، لكي تشجِّع المجتمعين على فكِّ القيود التي تربط قلوبهم بعبودية المتطلبات الدنيوية وتوجِّه انتباههم نحو ملكوت الله. فالعظة، بتوضيحها للقيمة الحقيقية للممارسة الليتورجية، تلعب دورًا حاسمًا في تحديد استجابة شعب الكنيسة لاختبار كلام الإنجيل المقروء أثناء الليتورجية. ومن داخل الليتورجية – التي ينبغي أن تكشف العظة عن أعماقها – يتغذَّى المؤمن بكلمة الله.

مهمة عظة القداس:

مهمتنا هي الكرازة بالإنجيل وتوضيح معانيه لجماعة المصلِّين، وهي فِعلٌ ليتورجي بالكامل. وكيف ذلك؟ **الإجابة**: هي في فحص وضع العظة داخل القداس. إنها تتبع قراءات الإنجيل، وذلك حسب التقليد الذي انحدر إلينا منذ منتصف القرن الثاني على الأقل. ولأن العظة تشهد لكلمة الله، فقد وُضعت داخل القداس الذي يُعطينا الكلمة الإلهي من على المذبح. ويؤيد **القديس الشهيد يوستينوس** ذلك بقوله:

﴿في يوم الأحد يوجد اجتماع... حيث يُتلى ما كتبه الرسل والأنبياء حسبما يسمح الوقت. وبعد ذلك يحثنا قائدنا في حديث (أي عظة) ويدعونا أن نتشبه بتلك الأمور النبيلة. ثم نقف جميعًا معًا لنرفع صلوات، ثم يؤتَى بخبز وخمر وماء، ويرفع القائد صلوات وتشكُّرات بقدر استطاعته، ثم ينال كل واحد هذه القرابين بعد تقديسها، كما أنها تُرسَل للغائبين مع الشمامسة.﴾.

فالدور الذي تؤدِّيه العظة في شرح كلام الله يجعلها جزءًا أساسيًّا من ليتورجية كلمة الله، وهذا يجعلها غير منفصلة عن الشعائر الطقسية لسرِّ الإفخارستيا. ويرسل روح الله في العظة كلمة لمنفعة المستمعين بصفة خاصة بواسطة الواعظ، وهي تهدف إلى جحد المستمعين لأي رضا ذاتي عن أنفسهم، كما أنها تُشير للسامعين إلى أنَّ حياتهم تتطلَّب إصلاحًا وتجديدًا مستمرًا، وأنَّ أفعالهم تقع تحت حكم دينونة الرَّب الآتي. فمن أهم وظائف العظة هي أن يتعرَّف شعب الكنيسة على الرَّب وأنْ يميِّزوا جسد الرَّب في السِّرِّ المقدس. فكما نتقابل مع ربنا وفادينا في جسده ودمه نتقابل أيضًا معه هو ذاته في كلمات الوعظ.

وفي مفهوم **القديس بولس** العميق للارتباط بين الإفخارستيا وكلمة الله، يوضح استياءه من بعض مؤمني كورنثوس الذين لا يُنفِّذون وصايا الإنجيل الذي سلَّمه لهم، كما يظهر في تصرفاتهم أثناء العشاء الرَّباني؛ وهكذا يرى أنهم صاروا «مُجْرِمِينَ فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ.» (١ كو ١١: ١٧-٣٤). فلأنهم لم يبالوا بكلمة الله لم يمكنهم أن يميِّزوا جسد الرَّب عندما يقتربون إلى مائدته. فالمؤمنون يجب أن يروا المسيح في الإفخارستيا بواسطة الكلمة التي بُشِّروا بها، وإلَّا فإنهم لن يميِّزوا جسد الرَّب المقدَّم ذبيحةً لأجلهم.

كما أن وضع العظة بعد القراءات الإنجيلية يُزوِّد المؤمنين بفرصة ممتازة لكي **ينتفعوا من تعليم الإنجيل في تغيير قلوبهم**. فالعظة ينبغي أن تزرع في قلوب السامعين بِذارَ الإنجيل الذي سمعوه بعناية، حتى حينما يقتربون من العلامة المحسوسة لكلمة الله أي جسد الرَّب المكسور ودمه المسفوك، يتعرَّفون على ربهم: «فَلَمَّا اتَّكَأَ مَعَهُمَا، أَخَذَ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَنَاوَلَهُمَا، فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَرَفَاهُ ثُمَّ اخْتَفَى عَنْهُمَا، فَقَالَ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ: «أَلَمْ يَكُنْ قَلْبُنَا مُلْتَهِبًا فِينَا إِذْ كَانَ يُكَلِّمُنَا فِي الطَّرِيقِ وَيُوضِحُ لَنَا الْكُتُبَ؟» (لو٢٤: ٣٠-٣٢). فكلمة الله وشرحها في العظة يُعلنان الإفخارستيا في معناها وقوتها. ورسالة الإنجيل، إذا عشناها، تكون هي وحدها الفعَّالة في السماح لنا بالاشتراك في ذبيحة المسيح.

إذا نظر المرء إلى نفسه بإخلاص وقاسها على ضوء كلمة الله، تصير نقائصه واضحة وتبرز حاجته **إلى التوبة عن خطاياه** التي صار واعيًا لها. والإنسان لا يكون دائمًا واعيًا لأفكاره **إن كانت خاطئة** أم صحيحة، فالعظة الفعَّالة تكشف له خطاياه التي يرتكبها دون معرفة، وبالتالي **تكون التوبة** عنها هي التي تفتح له أبواب الملكوت. وكأس الإفخارستيا لا تحاسب المشاركين فيها فقط بسؤالهم: «أتستطيعون

أن تشربوا الكأس التي سوف أشربها أنا»؟ ولكنها أيضًا تؤكِّد لهم أنهم سيقومون في اليوم الآخر (يو٦:٥٤). هكذا أيضًا: **العظة ينبغي أن تُقدِّم الخلاص المُفْرِح للذين يتوبون**، حيث إنَّ الذين يُوْفُونَ نذورهم للرَّب يتناولون كأس الخلاص: «بِمَاذَا أُكافِئُ الرَّبَّ عَن كُلِّ ما أعطانيهِ؟ كَأْسَ الْخَلاَصِ أَقْبَل، وَبِاسْمِ الرَّبِّ أَدْعُو. أَفِي نُذُورِي لِلرَّبِّ أمامَ كُلِّ شعبِهِ.» (مز١١٥: ١٢-١٤). فالتوبة والخلاص هما عمودا الإنجيل، والعظة التي تبشر بالإنجيل يجب أن تتضمن كُلًّا منهما.

مضمون عظة القداس:

يجب أن تُبنَى **عظة القداس** على ما تتضمنه قراءات الإنجيل الخاصة بقداس اليوم وتشرحها، حيث إنَّ الكنيسة اختارتها بعناية بحيث يدور محورها حول مضمون إنجيل القداس. ومع ذلك فيُستحسن أن يَقرِن الواعظ ذلك بأمثلة من الليتورجية أو سِيَر القديسين أو المبادئ الروحية التي تعلَّمناها من الآباء، كما يستخدم أمثلة قصصيَّة من أحداث الحياة اليومية بحيث تؤيد ما تتضمنه قراءات اليوم. فكل ذلك يثير انتباه السامع بما يطبع في ذهنه أثرًا ربما يدوم على مدى حياته كلها. كما أنه يجب عليه أن يُدعِّم في أذهان السامعين العلاقة بين كلمة البشارة وسِرِّ الإفخارستيا. فالهدف الليتورجي من العظة هو توجيه القراءات الإنجيلية نحو إكمال تحقيقها في الإفخارستيا، على أن يُراعي الواعظ جمال الأسلوب وحيويته وعدم الإسهاب، فيُركِّز على موضوع واحد حتى لا تتشتت الأفكار، وبذلك يغرس في النفوس رسالة تبقى فيها عندما تتقدم للتناول. وبالطبع، فإن روح العظة ينبغي أن تُلائم الجو الذي يعيش فيه شعب الكنيسة.

وبحسب قوانين الكنيسة وتقاليدها الأصلية، يجب على الذي يقوم بمهمة الوعظ أن تكون له إحدى **الرتب الكهنوتية الثلاث: الأسقفية، أو القسوسية، أو الشموسية**؛ وذلك لأنَّ أي خادم له إحدى تلك الرتب يكون مشهودًا له من شعبه، أن روح الله هو الذي يتكلَّم فيه عندما يعظ. وكأن الواعظ وهو على المنبر يُمثِّل الكاهن الأعظم الرَّب يسوع المسيح الذي **يُقدِّم الذبيحة**، ثم يُقدِّمه كذبيحة على المذبح؛ لكي يشترك فيه المؤمنون لأجل خلاصهم. فهو يُزيل البرقع الموضوع على كلمة الله، ويكشف عن **نور المسيح الكلمة** بعظاته التفسيرية.

ومن أوضح الأمثلة على اهتمام الواعظ بعظة القداس – كما رأيناها في تراث الآباء – **فكان من أشهر الآباء الوعاظ في الكنيسة الأولى أثناسيوس الكبير وكيرلس الأسكندري وكبريانوس القرطاجي وأمبروسيوس وباسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وكيرلس الأورشليمي والمغبوط أغسطينوس** وغيرهم. ويهمنا أن نشير إلى أنَّ القراءات الكتابية والعظة هما اللذان يضعان الأساس لربط السامعين بالخدمة الليتورجية حتى يمكنهم الدخول في الشركة مع الله والبقاء فيها. وعلى الواعظ أن يكفل بقاء الخيوط التي تربط كلمة الله بالسِّرِّ المقدس منسوجة بإحكام، وذلك لكي يبقى الرَّب يسوع دائمًا هو **الرَّب والسيِّد المتملِّك على قلوبنا وأذهاننا وتصرفاتنا**.

الإفخارستيَّا

عند القديس يوحنا الذهبي الفم

أَراد **يسوع** أن يَتَّحِدَ بطبيعتنا حتى يجعلنا جسده الخاص.

لم يكتفِ **المسيح** بتقديم نفسه ذبيحة من أجل أحبائه، بل وضع نفسه بين أيديهم، في أفواههم وتحت أسنانهم.

إنَّ سرّ الشكر يدعونا إلى سرٍّ القريب. وكل اتصال أصيل بالرَّب يجعل منا خُدامًا للبشر الذين ارتضى **المسيح** السُّكنى في قلوبهم.

كُلّ الذين **اعتمدوا للمسيح** ، بعد خروجهم من الماء (بعد المعموديَّة المقدسة)، يُقادون إلى المائدة المهيبة المملوءة بخيرات لا تُحصى، حيث يتذوقون جسد السيد ودمه، ويصيرون مسكنًا للروح القدس.

لنثق دائمًا بالله ولا نقاومه أبدًا بالرَّغم من صعوبة انصياع فكرنا إلى كلامه، ولو تكون كلمته فوق حواسنا وفوق عقلنا. لنتشبَّه بأسرارنا فلا نتطلّعن فقط لِمَا يبدو للعيون بل فلنلتصق بما قاله. يمكن للحواس أن تخدع لكن كلمته تبقى ثابتة إلى الأبد.

لقد قال **الكلمة**: هذا هو جسدي، فلنقبل ذلك، فلنؤمن بذلك، لننظر إلى ذلك بأعين الرُّوح، لأن يسوع لم يعطنا شيئًا حسيًّا بل ترك لنا، من خلال أشياء حسيّة، حقائق روحيّة. هذا ما يحصل في المعمودية حيث بواسطة الماء الحسِّيِّ نتقبّل عطيّة روحية: إعادة الولادة والتجديد. لو لم يكن لكم جسد لما كان شيء جسدي في عطايا الله لنا، لكن بما أنَّ نفسكم متصلة بجسد، يمنحكم عطايا روحية بأشكال حسيّة.

السِّرّ الافخارستي المحتفل به يوم الفصح لا يفترق بشيء عن الذي يُقام اليوم. إنْ كان **الصوم الكبير** يأتي مرّة كل سنة فإنَّ الفصح يتجدّد ثلاث مرّات وأربع مرات في الأسبوع، وأكثر من ذلك، بقدر ما يريده ، لأن ما يجعل من العيد فصحًا ليس الصوم،بل الذبيحة المقدمة في كل خدمة إلهية.

« كثيرون هم الذين يقولون أودّ أن أراه بنفسه: أنْ أرى وجهه الشَّيِّق، ملامحه، ثيابه على الأقل، حذاءه.

ها إنك تراه، تلمسه، تأكله. كنتَ تودَّ أن تكتفي برؤية ثيابه، ها إنه يبذل نفسه بنفسِهِ إليك، يتراءى لعينيك ويكون بين يديك، يُصبح طعامَكَ ويدخل إلى قلبك» (عظة متى ٣٢).

الفصل الثاني عشر

ولم يَعُد **نكتاريوس** يعرف كيفية الاطلاع بكل هذه المسؤوليات. فقد كان كُل شارع وكل قرية صغيرة وكل رعية ... بحاجة على الأقل إلى اثنين أو ثلاثة من المؤمنين المتفرّغين والمستعدين للعمل كأجراء **للرَّب** مكرِّسين أنفسهم للتضحية. ولكن أين يجدهم في هذا العصر المليء بالغرور، المبهور بالماديّة؟ «**أيُّتها الأرض ... يا وادي الدموع**».

لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة إلى مجلس المدرسة. فمن جهة، كان أعضاؤه يؤيدون فكرة اتساع شهرة المدرسة وهيبتها حتى في **أثينا**، حيث صار يُقام لها الاعتبار. لكنهم من ناحية أُخرى كانوا يُبدون الحذر: فمن هو القائد، ومن هو السيِّد؟ الإدارة أو أمين السرِّ العام؟ أم كاهن مجرَّد من حقوقه، استُقبل بالمدرسة بداعي الشفقة؟ هل يصبح هو القائد؟ فقط لأنه شديد التعلّق بالتقليد، ولمجرَّد أنه يُحسن إلقاء الموعوظات، ويبكي من التأثُّر من وقتٍ لآخر؟.

وشيئًا فشيئًا عاد الكلام على تعيينه بأنه: «مخالف لأنظمة الكنيسة». وعادت التلميحات والإيحاءات. ثمَّ بدأ الهجوم عليه جهارًا: «غريب، ممنوع من ممارسة الحقوق الكنسيّة، مجرَّد من صلاحياته ...».

وكان صديقه الآتي من لَميَّا، الشاب ساكوبولس، لا ينفك يسأله:

– « لِمَ لا تقول شيئًا يا صاحب السيادة؟ لِمَ تقبل الإهانات؟ ألَا ترى هذا الشعب الذي يحيطك بتفانٍ إن لم نَقُل إنّه يعبدك؟».

لقد كان ساكوبولوس كثير السعادة، فقد حصل على شهادته بدرجة امتياز ، وَعُيِّنَ ناظرًا في المدرسة ومُساعدًا **لنكتاريوس**. فصار بإمكانه أن يرافقه خطوة خطوة في حياته وجهاداته. ودون أن يشعر، كان يتنشّق عطر الزُّهد الروحي ويزداد توغُّلًا في غلائله الذهبيَّة، ويذوب إعجابًا **بنكتاريوس** وخوفًا عليه. وكان **الله** وحده يعلم أنه لن يتركه أبدًا. واعتاد **نكتاريوس** أن يجيبه بعذوبته المعتادة:

– «ليسَ من الضروري أن أتكلّم يا عزيزي كوستي.»

– « لكن **أنتل**، هذا التاجر القديم الذي أحسّ بأهميّته منذ أن عُيِّنَ عضوًا في المجلس، انظر كيف يحتقرك. انه يجعلك في مستوى أدنى من التراب ويدوس قداستك.

– « دعه، فسيعود إلى رُشده يومًا ما ».

وكان كوستي يخرج حزينًا، خافض الرأس، وهو يسير بمحاذاة جدران المدرسة. وما أن يتجاوز البوابة حتى يركض باتجاه نيابوليس ويصل إلى شارع ديرفيني حيث يسكن أهله. فيدخل البيت ويجد والدته تعقد مريولها لتحضير العشاء. فيتكىء على كتفها ويجهش بالبكاء طويلًا...

وقد صار من الضروري وضع نظام من البطاقات لدخول الكنيسة والمشاركة في قداس الأحد. ومنذ بعد ظهر الجمعة كانت تتوافد جماعات كبيرة وتتدافع أمام باب المدرسة مُحدثة ضجّة عارمة وتصايحًا ومَشادَّات مع الناظر من أجل الحصول على البطاقات.

في هذه الأثناء توفي **سينغروس**، وترك في وصيته ثروة صغيرة **لأهالي جزيرة خيوس**، يعود معظمها إلى قرية ليتي. وقد حزن **نكتاريوس** لموت هذا الرجل الغني والمليء بالطيبة. الذي أحبّ بلاده ولم تسكره سلطة المادة، كما لم ينسَ في حياته طَعم الألم والفقر.

ولكن الرجل ترك وراءه أيضًا همومًا كثيرة بانتظار أن تُنجز المعاملات، وأن يتسلَّم أعيان القرية المال. والحقيقة أن **سينغروس** كان على اطلاع بقصة **نكتاريوس** وخصوصًا بأنه كان مُدرِّسًا في قرية ليتي، فجعله منفذًا لوصيته. وعندها لم يعد **لنكتاريوس** الوقت اللازم للدرس ولا للقراءة، هذا العمل الذي يحبه ويفرّحه ويعلّق عليه الأهميّة الكبرى. وقد كان حضّر الخطوط العريضة لعدد كبير من الدراسات التي تصلح كمقدمة **لروحانية الآباء**، ووضع لها تعليقات دقيقة. كما حضّر دراسات دفاعية عن العقيدة للهدف نفسه.

وبعد مضي وقت قصير استطاع ان يتحرّر من جميع هذه الانشغالات وغيرها. ولكن التجربة عادت إليه بوجهٍ جديد.

فكأنه يمسك مرآة وعدسة مكبّرة يرى فيها عرش الإسكندرية والناس يرونه إياه برّاقًا وفارغًا. وكأنه ينتظره، هو **نكتاريوس**، كالمرشد الذي لا غنى عنه. وكأنَّ أصدقاءه الحميمين يُدفعون لإحاطته من كُل جهة ليردّدوا عليه الكلمات نفسها.

كان **صفرونيوس** يُحتَضَرُ، يترك الأرض ليمثل أمام هكل الرَّب الرهيب. وكان الجميع في مصر يهمسون باسم **نكتاريوس**. كانوا كلّهم يتمنّون لو يعتلي عرش **القديس مرقس** التاريخي. حاملًا الصليب والمكنسة بيده للتنظيف والتطهير، وإعادة الأمور إلى نصابها، والاهتمام ليل نهار بخلاص النفوس، والسير بها إلى الملكوت الذي لا تغرب شمسه.

«أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ.
لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.»
(يو 14: 6).

توزّعُ هذه المجلة مجانًا

جمعية نور المسيح

المحرّر المسؤول:
هشام خشيبون - سكرتير جمعية نور المسيح

كفركنا – الشارع الرئيسي – ص . ب . ٦١٩
e-mail: light_christ@yahoo.com
http://lightchrist.org/bulletins.html

لدعم نشاطات الجمعية تُقبل التبرعات مشكورة
في بنك العمال فرع الناصرة ، حساب رقم:
12-726-111122